أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي ما بعد 11 سبتمبر 2001



د. كمال عبد الملك
منى الكحلة

الجزء الثاني

مدارك

sharif mahmoud

أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي

ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001



الكتاب:
أمريكا في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001
الجزء الثاني

إعداد وتقديم: د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

التصنيف: سياسة - أدب الرحلات - شرق وغرب

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب
الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-22-1

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com

أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا

في أدب الرحلات العربي

ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001

الجزء الثاني

إعداد وتقديم

د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

sharif mahmoud

إهداء

إلى أخي الاستاذ عبد الملك معلمي الاول

كمال

إلى أبي وأمي مع محبتي التي لاتعرف الحدود

منى

الفهرس

المقدمة 9
نيويورك أول مرة: هشام الحديدي (1996) 13
رحلة مصري في أمريكا: عادل أحمد سركيس (1998) 21
حول العالم في 22 يوماً: محمد المر (1998) 29
من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق جولات في أمريكا وأوروبا
والشرق الأقصى وأستراليا: عباس الطرابيلي (1998) 35
مائة وثمانون يوماً في بلاد اليانكي: وفاء إبراهيم (2002) 47
تفكيك أمريكا:
مابعد أحداث 11 سبتمبر رضا هلال: (2003) 61
شمس الأصيل في أمريكا:محمد الجوداي (2003) 69
تحب تكره أمريكا؟:يوسف معاطي (2003) 79
أمريكانلي: صنع الله إبراهيم (2004) 87
أيام الضياع في أمريكا صراع القيم:
سعد الدين البدويهي (2004) 95

لماذا يكرهوننا؟: ناصر الدين محمد الزمل (2004) 111
الأمبراطورية الأمريكية:
البداية والنهاية منصور عبد الحكيم (2005) 117
في أحضان كوندوليزا رايس وبدون خسائر:
زهير واسيني (2006) 121
رحلاتي في العالم نوال السعدواي (2006) 131
شيكاغو: علاء الأسواني (2007) 139
سعوديون في أمريكا: تركي الدخيل (2007) 145
احتلال أمريكا: ياسر قنطوش (2008) 155
أمريكا نعم، أمريكا لا: مها عبد الفتاح (2008) 165
هذه هي أمريكا: يوميات طالب مصري في بلاد العم سام
علاء مصباح (2009) 177

المقدمة

في هذا الجزء رتبنا المختارات حسب تاريخ النشر وليس حسب الموضوع كما فعلنا في الجزء الأول والسبب في ذلك يرجع إلى أننا نعتقد أن هذه الكتابات الحديثة عن أمريكا يصعب ترتيبها حسب الموضوع، فهي تشتمل على كثير من الموضوعات وربما سيسهل ترتيبها في المستقبل - إلا أننا يمكننا أن نوضح بعض السمات المميزة لكتابات الرحالة العرب الذين زاروا أمريكا بين عام 1996 مروراً بأحداث الحادي عشر من سبتمبر وحتي عام 2009.

1 - ازدياد وتيرة المشاعر المناهضة لأمريكا إلى جانب الإعجاب الملحوظ بالثقافة الأمريكية ونمط الحياة فيها.

2 - الأغلبية العظمى من الرحالة العرب تربط بين أمريكا واسرائيل: العلاقة الخاصة بينهما، التحالف الأستراتيجي، المساعدات العسكرية، أمريكا والكيل بمكيالين، الخ.

3 - صورة أمريكا كغانية حسناء تفتن العرب ولكن تخدعهم أيضاً وتستغلهم. (هذه الصورة موجودة في الكتابات السابقة والمنشورة في الجزء الأول).

4 - وجود عدد لا بأس به من الخليجيين بين هؤلاء الرحالة: غازي القصيبي و تركي الدخيل وناصر الدين الزمل من السعودية، وعبد العزيز المسلم ومحمد المر من الأمارات العربية.

5 – تحتوي هذه الكتابات على قدر عال من المعلومات عن تاريخ أمريكا وسياسة أمريكا الخارجية أكثر مما تحتوي على وصف للرحلة وما رآه الرحالة هناك.

6 – القلة الملحوظة للنساء بين من كتبوا عما شاهدوه في أمريكا.

7 – وجود عدد من الروايات التي تقع أحداثها في أمريكا – مثل رواية أمريكانلي لصنع الله إبراهيم، ورواية شيكاغو لعلاء الأسواني.

8 – كان غريباً أن نجد عدداً من الكتابات الساخرة والمضحكة عن أمريكا بعد أحداث 11 سبتمبر – مثلاً «تحب تكره أمريكا»؟ ليوسف معاطي، واحتلال أمريكا لياسر قنطوش والمؤلفان مصريان.

9 – مع هذا القدر الكبير من كتابات الرحالة العرب عن أمريكا هل تستطيع أن نتكلم عن وجود نمط من الكتابة العربية يمكن أن نسميه علم الاستغراب العربي؟ يعني كتابة منظمة تتسم بالتنميط الثقافي للغرب في مقابل علم الاستشراق الغربي ؟ كأن العرب يردون على تنميط الغربيين لهم ويقولون لهم: نحن أيضاً نستطيع أن نخضع ثقافتكم الغربية لنظراتنا الفاحصة، نحن أيضاً بوسعنا أن نوصف ونحلل ونصنف ونتمط وحتي نسخر من عاداتكم وتقاليدكم ونظراتكم للحياة؟ العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم.

ونحن اذ نقدم للمكتبة العربية ولاول مرة نماذج مهمة من الكتابات العربية الخاصة بالرحلة إلى أمريكا والتي تغطي الفترة الواقعة بين 1996 مروراً بأحداث 11 سبتمبر 2001 وحتى عام 2009 نأمل في المستقبل القريب أن ننشر دراسة تحليلية عن صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي كما تتجلى في هذه المختارات.

كمال عبد الملك و منى الكحلة

دبي يناير 2011

نيويورك أول مرة

هشام الحديدي (1996)

هشام الحديدي طبيب مصري زار أمريكا عام 1992 لدراسة الجراحة التجميلية فى دالاس. يشمل كتابه العديد من انطباعاته عن الحياة الامريكية: السود فى أمريكا، الاقتصاد الامريكى، عائلة روكفلر، البيبسي كولا، السياسة الخارجية في الشرق الأوسط، الكمبيوتر في أمريكا، الفساد في أمريكا، أبحاث الفضاء، مارلين مونرو، السي إن إن، الخ.

نيويورك.. تفاحة الجنة سقطت على الأرض

إنها مدينة نيويورك التي تحمل اسم دوق يورك، ويسيطر عليها اليهود، ويرهبها الزنوج، وقد اشتراها أوربي أشقر من هندي أحمر بأربعة وعشرين دولاراً. فإذا بها تصبح خزانة الأرض وعاصمة الدنيا.

الزمان عام 1524... ومركب شراعي يقبل من بعيد، وصيحات الفرح في أفواه المغامرين فوقه، والقبطان من فلورنسا الإيطالية... جيوفاني فيرازنو، وقد كان أسبق الجميع إلى رؤية الخليج الذي ينبسط حول الجزيرة، (فلما افتتح أهل نيويورك جسرا هائلاً بين جزيرتي ستاتن وبروكلين الواقعتين في كوردون مدينة نيويورك - أطلقوا عليه كوبري جيوفانى فيرازنو!) وسجلها في خرائطه. ولكنها كانت بعيدة

عن الشواطئ التي كان يتدفق عليها الهاربون من الاضطهاد الديني في أوربا، والحالمون بالمجد من القارة التي سئمت الحرب. والغزاة الأسبان الذين تملكتهم – بعد أن طردوا العرب من بلادهم – شهوة الغزو منذ أن أعلن كريستوفر كولومبس كشفه لأمريكا.. وفي عام 1609 وصل إليها هنري هدسون، قبطان انجليزي موظف في شركة هولندية، وحدق في منظاره المكبر وصاح:

– يا إلهي إنني أرى نصف قمر!

وسأله مساعده الهولندي:

– سيدي هنري هدسون... هل تعني الجزيرة التي أمامنا... أم النهر الذي نسير إلى مصبه؟!.

فقال وهو يتجول بعينيه المجردتين مبهوراً:

– الجزيرة...

وكان اسم الجزيرة مانهاتن... هذا ما قاله الهنود الحمر سكانها، أما النهر فقد أصبح نهر هدسون... تخليداً لهنري هدسون. وأقبل الهولنديون على الجزيرة... في عشرات السفن التي رست إلى الميناء فأصبح غابة من الأشرعة البيضاء، ولكن مانهاتن ملكية هندية. صاحبها صانع تبغ وخرز وتمائم. وقد بحث عنه «بيتر مينوى»

وواضح من اسمه أنه من أصل فرنسي، ووجده، وفاوضه على بيع الجزيرة، ووافق الهندي الأحمر على أن يبيعها بأربعة وعشرين دولاراً. تقاضاها خرزا ملونا... وظن أنه ضحك على الرجل الذي كان يمثل

الشركة الهولندية... ولكن العالم كله ضحك الآن على هذا «الهندي» لأن مانهاتن صارت هي جزيرة أعلى ناطحات السحاب في العالم، وأقوى بنوك العالم.. مانهاتن قصر الدنيا الشاهق...

ولهذا فمدينة نيويورك عند الأمريكيين هي رمز لأمريكا القوية والثرية. حتى لو تنصلوا منها بعد ذلك بأنها مدينة لا تعبر عن الشعب الأمريكي لأنها مدينة من لا مدينة له. تجمع الأشتات من كل الدنيا...

سفينة نوح دونها، وبرج بابل قصة قصيرة إلى جانب ملحمة نيويورك الكبيرة المثيرة. فقد احتلها الهولنديون في مطلع القرن السابع عشر، وسموها «نيونيذرلاند» أي الأراضي الواطئة الجديدة، ولم يكن الهولنديون المحتلون دولة.. بل هي الشركة الهولندية لجزر الهند الجنوبية. تدعمها الدولة، وكانت هذه الشركة تريد احتكار الأراضي لنفسها، وهو ما عارضه بيتر مينوى الذي اشترى جزيرة مانهاتن لحسابها. واستقال مينوى... وانتقل إلى العمل مع الحكومة السويدية، واحتل لها مقاطعة «ديلاور» جنوبي نيويورك، وأطلق عليها اسم «نيوسويد»، واعتبر الهولنديون هذا التصرف تهديداً لهم. ولكن التهديد ظل باقياً لأن خلفاء مينوى في حكم «نيونيذرلاند» لم يفعلوا شيئاً يقوي مواقعم، فلما جاء «بيتر ستوفيزانت» -وهو الآن ماركة سجاير- احتل نيو سويد وألغى اسم «نيونيذرلاند» وسماها «نيو أمستردام»... التي هي نيويورك الآن!.

ولكن التشكيل النهائي لتلك المنطقة لم يضعه بيتر ستوفيزانت بل إن الذي وضعه هو سلسلة من المعارك التي خاضها الإنجليز والفرنسيون ضد الهنود الحمر، وأحياناً بالتحالف مع الهنود الحمر.

واستتبت السيطرة للإنجليز على نيو أمستردام عام 1664. فأهداها الملك شارل الثاني لشقيقه دوق يورك، ولهذا أصبحت تحمل اسمه، أصبحت نيويورك، وقد أصبح دوق يورك الملك جورج الثاني، وأصبحت نيويورك أعظم مدينة في العالم.

ونيويورك مدينة تعشق الحرية..هذا العشق قديم، فقد كافح أهلها لكي يكون لهم صوت عند الحكومة البريطانية -أي حكومة الاحتلال- وهم من طالبوا بإقصاء الحاكم البريطاني العام - أدموند ألدروس- الذي كان شخصية كريهة، فلما لم تستجب الحكومة البريطانية أقصاه الأهالي في ثورة شعبية، وتولى حكم المدينة تاجر... وتاجر التاجر بالمدينة فقبض عليه حاكم بريطاني جديد، وشنقه. وفي عام 1735 سمعت أمريكا عن أول قضية من قضايا الحرية الصحفية، أقامها «جون رنجز» صاحب «النيو جازيت»، وأصبح من حقه أن ينشر ما يشاء... طالما كان صادقا. وقدمت نيويورك للحرب الأهلية 500 ألف مقاتل وبقي أهلها جنوداً للجبهة الداخلية ينتجون في المصانع. ومن يومها لم تكف نيويورك عن العطاء والإنتاج واشتهرت بقدرتها على مضاعفة الإنتاج خلال كل الحروب ومضاعفة الإصلاحات... وأهم ناطحات السحاب التي أقيمت فيها كانت في الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية: ولهذا دخل «لاجوارديا» عمدة نيويورك وعمدة الإصلاح في الفترة من عام 1934 إلى عام 1945 قلوب أهل المدينة فاطلقوا اسمه على مطار هائل!.

ونيويورك المدينة عاصمة ولاية نيويورك... ونجمة النجوم في العلم الأمريكي... وقد اختارها جورج واشنطن، عاصمة رسمية

للولايات المتحدة لأنها الولاية الإمبراطورة... (الإمباير ستيت). وهذا الاسم أطلق على أكبر عمارة فيها... وهي مبنى (الإمباير ستيت) - 6500 نافذة- وبهذا المبنى يرمز لنيويورك، وتمثال الحرية. وقد أقسم جورج واشنطن يمين الولاء الرئاسي عام 1789: فأقيم تمثال حيث أقسم، وبقيت داره ومقر رئاسته مزاراً سياحياً تفخر به المدينة. ولكن نيويورك لم تستمر طويلاً مقعداً لرئاسة الجمهورية... ظلت كذلك عاماً واحداً، واتفقت الولايات المتحدة الأمريكية على ألا تستأثر إحدى هذه الولايات بمقعد الحكومة الفيدرالية بل تخصص أرضاً محايدة تسمى الآن واشنطن دي.سي.اي، واشنطن الواقعة في ضاحية من كولومبيا. وحملت المدينة اسم نيويورك جورج واشنطن!.

الصين وجرينتش!

ونيويورك مجموعة أحياء كبيرة... مانهاتن هي الجزيرة الرئيسية وحولها ما تبلغه بعبور كباريها الشاهقة أحياء «برونكس» «وكنجز» و «كوينز» و «رتشموند»... وأحياء فرعية مثل «هارلم» حي الزنوج الذي يعتبر أفقر أحياء المدينة وإن كان من أصحاب الملايين البيض من تهزه دوافع إنسانية إلى بناء دور لرعاية المشردين، ومدارس لمحو أمية الأميين، وأندية رياضية... وأندية «هارلم» تخرج لأمريكا أقوى لاعبيها في الملاكمة وكرة السلة والمصارعة. ثم تقدم للعالم أمهر عازفي الآلات الموسيقية مثل الخالد «أرمسترونج»، أشهر عازفي القرن العشرين، من «هارلم» يرتفع صخب موسيقى الجاز... فهذه ماركتهم

المسجلة، ولكنها تختلط برائحة الخمور. فهنا عتاة المدمنين، وتترنح -أي موسيقى الجاز- في سحب الماريجوانا فهنا تجارتها النشيطة تحت إشراف عتاة المافيا من أبناء صقلية الإيطاليين. ولكن هارلم ليست شرا كلها كما قد توحي الصورة... أو كما تؤكد السيرة... إنها تخرج أساتذة الجامعات السود، وأشهر الفنانات والفنانين... بالإضافة إلى أساطير الرياضة!.

وفي حي «هارلم» الذي يزدحم بالزنوج وأبناء بورتوريكو السمر، يخرج الآباء والأمهات في الأمسيات ليرقبوا أطفالهم وهم يمرحون في «الشوارع» المزدحمة بالسيارات.

وتحاول السلطات تقوية قبضتها على الزنوج. الذين يتجمعون في هارلم، فتزيد من عدد رجال البوليس بنسبة 11 في المائة عن أي منطقة أخرى. وتقرر ذلك بقولها: أن أي حركة يقوم بها السود أخطر من انفجار القنبلة الذرية وانتشار الإشعاع الذري على السكان.

مدمنو المخدرات

إن نيويورك فيها قوات بوليس أكبر من جيوش بعض الدول. ففي المدينة 24 ألف رجل بوليس، ورغم هذا فقد حدث في العام الماضي أن تمت بها 245 جريمة قتل و 1115 جريمة هتك عرض و 6064 سرقة. وهذه أعلى نسبة في عالم الجرائم. والمشاة وسائقو السيارات لا يستطيعون السير في أمان في عدد من شوارع نيويورك مساء، وقرب حدائق السنترال بارك الشهيرة نهاراً.

اغتصاب التلميذات

ومدارس نيويورك قد تعطيك صورة للأخلاق في المجتمع، فمدرسة «جون مارشال» العليا تأمر فتياتها بالذهاب إلى المصعد، كل فتاتين معا، حماية لهن من الذئاب التي تغتصب كل فتاة تسير على انفراد في المدرسة.

يصل تعداد نيويورك إلى 8 ملايين نسمة، وبين هؤلاء تجد واحداً من كل ثمانية يسكن في أكواخ الأحياء الشعبية القذرة... وهؤلاء المليون نيويوركي يقاسمهم في جحورهم 9 ملايين فأر. وهذه الفئران من نوع خطير، عض أحدها رجلا فأصابه إصابة خطيرة. وقتل آخر طفلاً بعد أن شوه ملامح وجهه... ومعظم سكان أكواخ نيويورك هم من الزنوج وعددهم 900 ألف نسمة، وأبناء بورتوريكو وعددهم 700 ألف آخرون، ويقيم فيها أيضاً عدد كبير من اليهود والإيطاليين والأيرلنديين... ومشاكل تعدد السكان تسبب أزمات لا حصر لها، فأبناء بورتوريكو يزيدون كل عام بمعدل 40 ألف نسمة وهؤلاء المواطنون الأمريكيون لا يجيدون الإنجليزية.

وتوجد بعض مساكن شعبية بنيت لحل أزمة المساكن، ولكن إذا اقتربت منها متفحصاً، راعك أن نوافذها محطمة الزجاج، وأبوابها مخلوعة وجدرانها متصدعة. كما أن مفاتيح النور معطلة دائماً وبعض الأسانسيرات تحولت إلى دورات للمياه.

إن نيويورك لم تعد تصلح بعد لذوي الدخل المتوسط، ولذا أخذوا يلجأون للضواحي الهادئة النائية. وهكذا تبقى نيويورك لأصحابها: كبار أصحاب الأسهم ومديري المصانع الذين يشكلون قوة سياسية هامة ذات نفوذ اقتصادي تستطيع شراء النواب والصحف والناخبين...

والفقراء المعدمين الذين يشكلون أغلبية فاقدة النفوذ. لقد ظهرت حاجة المدينة أخيراً إلى عدد أكبر من رجال البوليس والمطافئ ورجال التعليم... وأصبح عدد كبير من مباني المستشفيات والمدارس في حاجة إلى التجديد والإصلاح... أما مكتبة المدينة فإنها تعاني من قلة العمل وعدم شراء الكتب الجديدة.

رحلة مصري في أمريكا

عادل أحمد سركيس (1998)

عادل أحمد سركيس محامي مصري وصحفي له عدة مؤلفات قانونية. يروي المؤلف خلاصة انطباعاته عن الحياة في أمريكا على مدي ثلاث سنوات متصلة ومن خلال زياراته المتكررة فيما بعد إلى عدة ولايات أمريكية وهي انطباعات ممتزجة بالإعجاب بعديد من نواحي الحياة في أمريكا وخاصة في مجال التعليم والمكتبات وتربية الأطفال و الأعتماد على الذات ولكنه قدم أيضاً ماوصف بالتمييز ضد السود والهنود الأصليين. والقارئ يجد في كتابه أيضاً بعض الملاحظات الغريبة مثل: قدماء المصريين عبروا المحيط الأطلنطي من شواطئ ايرلندا حتي خليج المكسيك، هناك علاقة وثيقة بين القدماء المصريين والهنود الأصليين (الحمر) و الدليل على ذلك أن الهنود الأصليين مازالوا يعبدون الآله آمون رع، كان للرهبان الأقباط دور كبير في إحياء الثقافة الأيرلندية، القديس باتريك St. Patrick لم يكن أيرلندياً ولكن قبطياً... الخ.

التقاليد الأمريكية

لعل الكثيرين قد يدهشون اذا علموا أن أكثر ما كان يقلقني في علاقاتي مع أصدقائي الأمريكيين هو أن يحدث سوء فهم بسبب اللغة أو اختلاف العادات والتقاليد. حقيقة أن هناك صداقات عميقة

استبعدت تماما وقوع أي سوء فهم بيني وبين أطرافها، لأنهم قد عرفوني جيدا وأدركوا صدق مشاعري نحوهم، حتى عندما تمس بعض كلماتي ذلك المعنى الواسع للحرية الشخصية عندهم...

وقد وقع أول تصادم بيني وبين التقاليد الأمريكية قبل مضي عدة أسابيع على وصولي إلى هناك....

كنت أتناول طعام الغداء في أحد مطاعم الجامعة عندما شاهدت فتاة - تعمل بالمطعم- تتجه إلى الممر القريب من مكان جلوسي. وعندما اقتربت مني، تنبهت إلى أنها تتجه لالتقاط ورقة مهملة ملقاة على أرض المطعم. فوجدتني أسرع قبلها لالتقاط الورقة.

وفجأة اتجهت الفتاة نحوي بوجه غاضب. وتحدثت كثيرا بصوت غير خفيض. ولم أفهم كلمة واحدة مما قالته. كل ما أدركته حينذاك أنها غاضبة جدا مني لأني التقطت تلك الورقة اللعينة. ولم أرد عليها، لأنها تركتني بسرعة بمجرد الانتهاء من إطلاق كلماتها التي أرادت قولها لي، ولأني لم أفهم السر في ذلك الغضب المفاجئ...

وبعد فترة رأيتها تتحدث إلى طالبة كانت تجلس غير بعيد تتناول طعامها أيضا. وأدهشني أن دايان DIANE -وهذا اسمها- كانت تنظر ناحيتي مبتسمة في غير غضب.

وشجعني ذلك على القيام من مكاني والتوجه إليها بمجرد أن تركتها فتاة المطعم... سألتها.

- لماذا غضبت صديقتك مني؟

قالت دايان

- لأنك منعتها من أداء عملها عندما قمت بالتقاط تلك الورقة بدلا منها.

قلت في دهشة.

- إنني لم أقصد ذلك مطلقا...

سألتني في اهتمام وقد اختفت ابتسامتها.

- لماذا فعلت ذلك إذن؟

قلت

- أنا مصري، ومن تقاليدنا أن نحترم المرأة. وعندما تنبهت إلى أنها ستلتقط الورقة من على الأرض، أسرعت قبلها لالتقاطها، حتى لا تنحني -كامرأة- إلى الأرض لالتقاطها.

وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيها وهي تقول...

- يبدو أن المرأة في بلدكم ذات حظ حسن...

وعدتني دايان أن تنقل وجهة نظري إلى فتاة المطعم وأن تساعد على تصفية الموقف بيني وبينها... وقد كان.

وكانت المرة الثانية بعد ذلك بشهور قليلة... كنت اتجه إلى مركز الإعلام Media Center بالمكتبة العامة لجامعة إنديانا عندما رأيت الصديقتين سوزان بوليتانو Susan Politano وأديل دندي Adele Dendy -وهي من الأمريكيين الأفارقة African Americans واقفين على جانب من الممر الذي أسير فيه... والتقاليد الأمريكية تقضي بأن أعبرهما دون تحية حتى لا أقاطع حديثهما... والتقاليد المصرية والعربية- تحتم عليّ تحيتهما...

ولم أستطع أن أتقبل فكرة العبور بجانب صديقتين عزيزتين دون تحية... ووجدتني أقف رافعا كلتا يدي إلى أعلا، كأنما هناك من يصوب سلاحه نحوي. ومضت لحظات قبل أن تلمحني سوزان وتسألني في دهشة:

– عادل، لماذا تقف هكذا ويداك مرفوعتان لأعلى؟...

قلت وأنا واقف في مكاني لم اتحرك، ويداي مرفوعتان...

– إنني لا أستطيع أن أعبر بجانبكما دون تحية خضوعا لتقاليدنا في مصر... فإذا فعلت، كان ذلك مخالفا للتقاليد الأمريكية. لأنني قاطعت حديثكما. ضحكتا، ودعتني أديل دندي للاشتراك معهما في الحديث. وقالت وهي تضغط ذراعي في رفق.

– إفعل ما تراه متفقاً مع تقاليدك المصرية، وسنفهم ذلك دائما...

وكانت المرة الثالثة بعد المناظرة التي جرت بين الرئيس جيرالد فورد Gerald Ford والرئيس جيمي كارتر Jimmy Carter المرشحين لمنصب الرئاسة الأمريكية في نهاية عام 1976.

سألتني إحدى الطالبات أن أحدد موعدا معها لمناقشة بعض الموضوعات التي أثيرت في تلك المناظرة بصفتي غير أمريكي، لاستيفاء البحث المطلوب منها. وافقت على طلبها، وعند تحديد موعد اللقاء أردت أن أعرف ما إذا كانت مرتبطة بشخص آخر قد يؤثر على حريتها في اختيار الموعد، فسألتها

– هل لك صديق Boy Friend؟

قالت بصوت خافت

– لا

قلت بسرعة...

– هذا حسن!...

وفجأة ارتسم الغضب على وجهها الجميل وهي تؤنبني على ما قلته... فقد أثرت موضوعا حساسا بالنسبة لها، إذ ليس لها صديق خاص... وتنبهت إلى المطب الذي أوقعت نفسي فيه... كانت الفتاة من أصل هولندي ذات وجه جميل جداً، ولكن قوامها كان ممتلئا على غير النحو المرغوب فيه والمنتشر بين الأمريكيات، والذي تبدو فيه بعض العظام بارزة، مما يفقدهن الكثير من المظهر الأنثوي -وأسرعت امتدح جمالها وقوامها الأنثوي، وأنها لو ذهبت إلى مصر لاجتذب جمالها العديد من الرجال.

وتلاشت الغضبة من ملامحها، وعادت إلى شفتيها ابتسامة سعيدة راضية...

وفي أمريكا، يجب أن تقول دائما كلمة مجاملة للمرأة عن جمالها أو ردائها الأنيق أو تسريحة شعرها الجميلة... وإلا كنت رجلا غير مهذب إجتماعيا... على العكس تماما مما في مصر والبلاد العربية فان كلمة مجاملة للمرأة تعني «الغزل»... وهو تصرف غير مهذب اجتماعيا - رغم كل ق صائد الغزل التي قيلت- وقد يعاقب عليها قانونا...

وعندما توجهت ذات يوم إلى المكتبة العامة لجامعة إنديانا لتسليم   ما بقي في حوزتي من كتب - وكان ذلك في اليوم السابق لعودتي إلى مصر عام 1979 - التقيت في المدخل بفتاة رشيقة القوام ترفع شعرها الى أعلى بطريقة مختلفة عما تعودت عيوننا أن تراه بالنسبة لطالبات الجامعة، وتضع في قدميها حذاء ذا كعب عال، وهي تتمخطر في مشيتها كأنما كانت تؤدي بروفة لمسابقة ملكات

الجمال... وقد مرت أمامي أكثر من مرة دون أن أقول لها كلمة مجاملة واحدة رغم أن عينيها كانتا تنظران نحوي كأنما تنتظر أن تستمع ما أقول...

وعند مكتب الاستقبال جاءت تلك الفتاة ووقفت بجانبي وبمجرد أن أنهيت حديثي مع فتاة الاستقبال، قالت وهي تنظر إلى بجانب عينيها.

- أرى انك تستطيع الكلام... كنت أظنك أخرس!...

وأدركت مقصدها، فقلت في شبه اعتذار:

- لقد خشيت أن أنطق بكلمة واحدة، حتى لا أتخلف عن الطائرة التي ستقلني غداً إلى وطني...

فابتسمت الفتاة وهي تقول:

- قبلت اعتذارك، لأنه فاق -في اعتقادي- ما كان يمكنك أن تقوله مجاملة...

وقد شكت لي يوما الدكتورة سوزان الشامي DR.SUSAN ALSHAMY زوجة الصديق الدكتور حسن الشامي، الأستاذ بقسم الفولكلور بجامعة إنديانا - من أنها تقدمت بهدية الى إحدى السيدات المصريات بمناسبة دعوتها إلى تناول طعام الغذاء في بيتها... وانتظرت ان تقوم السيدة المصرية بفتح العلبة ورؤية الهدية وإبداء رأيها فيها... ولكنها اكتفت بكلمة شكر قبل أن تضع الهدية - كما هي في علبتها- في أحد أركان الحجرة... تضايقت الدكتورة سوزان الشامي لذلك التصرف الذي اعتبرته إهانة لها وتحقيرا من شأن هديتها، رغم أنها كانت هدية ثمينة... فمن التقاليد الأمريكية، تبادل

تقديم الهدايا في المناسبات المختلفة، وكذلك عند تلبية الدعوة لتناول الطعام في منزل الداعي... وتقدم الهدايا في علبتها ملفوفة بورق نقشت عليه رسومات مختلفة وبألوان جميلة تتفق مع كل مناسبة، أو مع الذوق الشخصي لمقدمها.

فإذا قدمت إليك هدية ما، يجب عليك أن تفتح علبتها أمام مقدمها والضيوف الآخرين الموجودين، وأن تقلب الهدية بين يديك تتفحصها وأنت تشكره على هديته الجميلة التي حازت إعجابك وتقديرك وأنك كنت تتطلع أن تحوز مثلها...

وقلت للدكتورة سوزان:

- إن السيدة المصرية لم تقصد - بتصرفها - إهانتك أو التحقير من شأن هديتك... إنها قد فعلت ما أملته عليها تقاليدها المصرية. أن لا تظهر لهفتها على معرفة محتوى العلبة، لذلك فهي لا تفتحها أمامك... وهي تحرص أيضا على أن تبدي عدم الحاجة إلى قبول هدية بمناسبة لا تستحق ذلك، لأن تناول الطعام في بيتها أمر عادي وليس مناسبة خاصة تقدم فيها الهدايا... بالإضافة إلى التزامها بمراعاة مشاعر الحاضرين وقت تقديم الهدية، حتي لا تتاح فرصة للمقارنة بين الهدايا... فالهدية في معناها وليس في محتواها... كما لا يكون هناك أي مجال لإحراج من لم يتقدم بهدية...

وقد بدا لي أن الدكتورة سوزان الشامي قد اقتنعت بما ذكرته لها، فقالت.

- إنها وجهة نظر جديدة تماما، لم أعرفها من قبل.

وكانت الوصايا الأولى التي استقبلنا بها الصديق الدكتور فاروق

عبد الوهاب رئيس اتحاد الدارسين المصريين بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا في ذلك الوقت -عميد كلية التربية الرياضية جامعة المنيا سابقاً- ضرورة مراعاة أمرين على جانب كبير من الأهمية:

الأول: أن نمتنع تماما عن ممارسة العادة المصرية والعربية عند لقاء صديقين من الرجال. فلا عناق أو تبادل القبلات على الخدين، أو السير معا ذراع في ذراع...

والثاني... أن نبدي اهتماما بالمرأة أكثر من الرجل. فإذا التقينا بزوجين كان الاهتمام الأكبر بالزوجة وليس بزوجها.

وتبدو أهمية هذه الوصايا في أن المجتمع الأمريكي ينظر باحتقار شديد إلى الجنس الثالث، وكان علينا دائما أن نؤكد أننا لا ننتمي الى ذلك الجنس الممقوت.

حول العالم في 22 يوماً

محمد المر (1998)

محمد المر كاتب أماراتي مشهور له عدة مجموعات قصصية منها «ابتسامة الموناليزا».

أول ما يرد إلى ذهن القارئ عندما يسمع عن رحلة حول العالم هو بلا شك كتاب الاديب الفرنسي الكبير جول فيرن (حول العالم في ثمانين يوما)، وعلى الرغم من أن تلك الرواية كانت نتاج مخيلة ذلك الاديب الخصبة. الا انه حتى في تلك الايام فان رحالة امريكيا استطاع ان يدور حول العالم مستخدماً البواخر والقطارات ومنهياً رحلته في اقل من ثمانين يوما، اما في هذه الايام فبامكان الانسان ان يدور حول العالم في ضيافة خطوط الطيران العالمية في ساعات معدودة. وقد قام مؤخراً الممثل البريطاني المعروف (ميكل بالين) مع طاقم تلفزيون البي. بي. سي. باعادة تجربة رواية جولي فيرن حول العالم في ثمانين يوما مستخدما القطارات والبواخر وقد مر بالامارات ومنها ابحر الى مدينة بومباي الهندية.

رحلتي الاخيرة حول العالم، وهذه أول مرة ادور فيها حول الكرة الارضية، لم تكن بقصد المغامرة او حب الاستكشاف بل كان الدافع من ورائها والظروف التي املتها مختلفة تماماً عن تلك الامور.

قبل عدة أشهر أصابتني آلام في ظهري وكتفي واستخدمت لها بعض الدهانات والأدوية الموضعية وكانت تخف قليلاً ثم تعاود الرجوع

ولما بدأ الوجع يتسلل إلى ذراعي اليسرى، بدأت الوساوس المرضية تتسلل إلى ذهني، آلام في الظهر والكتفين وتنميل في الذراع اليسرى، لابد أنه مرض القلب! عملية فتح القلب! تبديل الشرايين! أنا أنتمي إلى قبيلة عالمية اسمها (أهل الوسوسة المرضية) ونحن قبيلة كبيرة، فعددنا في بريطانيا يزيد على المليونين وفي الولايات المتحدة يصل تعدادنا الى عشرة ملايين وقس على ذلك في باقي دول العالم، وقد كتب لي أحد القراء الاعزاء بعد صدور مجموعتي القصصية الاخيرة (سحابة صيف) رسالة لطيفة، ولكنه سخر من بطل قصة (هذيان الديسك) الذي ينتمي إلى قبيلتنا العالمية وأعلن احتقاره له دون أن يدري أن المؤلف نفسه من أبناء تلك العشيرة!.

لم يقنعني تشخيص الأطباء عندنا، ونحن أهل الوسوسة بيننا وبين الأطباء علاقة حب وكره، فنحن نكثر التردد عليهم وعندما يطمئنونا نشك في مقدرتهم التشخيصية، وعندما يوفقون في تشخيص المرض الذي اصابنا نشك في مقدرتهم العلاجية، كما أننا نسمع عن تشخيصهم آراء متناقضة فهنالك مرضى اخبروهم في مستشفياتنا المحلية بأنهم مصابون بعلل منوعة، وعندما ذهبوا إلى المراكز الطبية في أوربا وأمريكا ضحك الأطباء من ذلك التشخيص وهنالك مرضى آخرون توافق تشخيص الأمارات مع تشخيص الخارج، ولكن لم يتوافق العلاج، وهنالك الفئة الأخيرة التي توافق فيها التشخيص والعلاج.

فكرت بالسفر إلى الخارج ولما كنت في السنوات الأخيرة لا أميل إلى السفر فقد ترددت في أتخاذ القرار ولكنني حسمت أمري عندما أخبرني أحد الأخوة الأحباب عن رغبته بالسفر إلى المركز الطبي في مدينة «هيوستن» بولاية تكساس الأمريكية لاجراء بعض الفحوصات

الطبية وأنه في الوقت نفسه يرغب في إتمام بعض أعماله التجارية في «سنغافورة» و «طوكيو وباريس». أتممنا التأشيرات وما يحتاجه المسافر وتهيأنا للسفر حول كرتنا الأرضية الغالية. في صباح اليوم الذي سبق السفر ذهبت إلى فرع البنك الذي أتعامل معه وأنا مليء بالحيوية والنشاط والتفاؤل، رحب بي مدير الفرع وطلب لي الشاي والماء البارد، أخبرته عن رغبتي بشراء الشيكات السياحية.

افتر ثغره عن أبتسامة مجاملة وسألني:

- إلى أين السفر؟.

- إلى الولايات المتحدة.

- للعمل أو السياحة؟.

- للكشف الطبي.

- خير إن شاء الله!.

- شيء بسيط، أصابتني في الآونة الأخيرة آلام في ظهري وتسللت إلى ذراعي، الأطباء هنا قالوا لا داعي للقلق ولكن أنت تعرف الأنسان يحب أن يطمئن.

- حسناً فعلت، فحوصات الأطباء هنا لا تطمئن، أحد الموظفين عندنا عندما أجري له الفحص الطبي هنا قالو له أنت بخير، ولما ذهب إلى أمريكا وكشفوا عليه اخبروه أنه مصاب بسرطان الدم وليس أمامه فسحة من العيش سوى وقت قصير. وهنالك أيضاً أحد المعارف الذين قالوا له هنا بأن كل شيء على ما يرام وعندما فحص في الخارج اكتشفوا فيه المصائب والبلاوي.

لم أعد أسمع كلامه، تبخر التفاؤل والحيوية، وقعت على الشيكات

السياحية بشكل آلي وقد تجددت الوساوس وتمخضت الهواجس.

وفي المساء مررت بمجلس ندوة الثقافة والعلوم وعلى الرغم من أننا تندرنا مع الأخوة الحاضرين على حديث مدير الفرع إلا أن تلك القفشات المرحة لم تنجح إلا في تخفيف قدر بسيط من الوساوس التي أثارها مدير الفرع بحديثه المليء بالتشاؤم!.

1994/4/24

غادرنا مطار دبي في الساعة الرابعة فجراً على طيران الإمارات، لا أحب رحلات الليل ولكن ما العمل، خصوصاً وأن التذاكر التي حصلنا عليها مخفضة ولا يمكننا إلا أن نستخدم طيران الإمارات والأمريكان اير لاينز فقط! جلس على الكرسي المجاور لي من ناحية اليمين رجل له ملامح أوروبية، كان يقرأ رواية من روايات أدب الخيال العلمي، بعد قليل من اقلاع الطائرة تعارفنا، أخبرني أنه رجل أعمال أمريكي، عنده شركة تجارية في «سنغافورة» وله مكتب تمثيل تجاري في مدينة دبي وهو يقيم مع زوجته في دبي لأن زوجته عربية وهو يحب الحياة البسيطة والهادئة في دولة الأمارات.

تصفحنا الجرائد اليومية، سألته عن رأيه في الضجة التي أثيرت في الصحافة الأمريكية عن قضية الصبي الأمريكي الذي ارتكب عدة مخالفات في مدينة «سنغافورة» فحكم عليه القاضي السنغافوي بالجلد ست ضربات على مؤخرته بالكرباج، وكيف أن المعلقين الأمريكين يقولون بأن تلك الضربات قاسية جداً، وسوف تترك أثراً دائماً وذلك تصرف بربري! ضحك وقال: أتمنى أن تطبق تلك العقوبات في مدننا

الأمريكية، لقد أصبح كثير من مدننا الأمريكية مناطق نفوذ لعصابات من الأحداث والصبية المنحرفين الذين يعرفون أن العقاب الكافي لن يطالهم، لذلك فإنهم يتمادون في سلوكياتهم المجرمة، كما أننا يجب أن نتقيد بقوانين البلدان التي نذهب إليها ونعيش فيها كما نطلب من الأجانب أن يتقيدوا بالقوانين الأمريكية عندما يحضرون إلى بلادنا.

تشعب حديثنا عن الجريمة والعقاب والأحوال في مدن الولايات المتحدة التي درست في أحداها ولكني لم أذهب إليها منذ زمن طويل، حضر الطعام فانشغل كل منا بالأطباق التي أمامه.

بعد نهاية الوجبة رجع هو إلى روايته وبدأت أقرأ كتابا عن مدينة «سنغافورة». ذكر المؤلف شيئاً عن تاريخ تلك المدينة فقال إن أسطورة من ماليزيا تقول إن أميراً من «سومطرة» التقى بأحد الأسود قرب «تيماسيك» فكان ذلك فألا حسناً مما دفعه لتأسيس «سنغافورة» أي «مدينة الأسد»، ولكن الواقع يثبت أن الأسود لم تسكن «سنغافورة» ولا يوجد دليل اركيولوجي لمدينة قديمة، لذلك فأغلب الظن أنها كانت مركزا تجاريا صغيرا للأمبراطورية السومطرية ثم أصبحت تابعة للامبراطورية «الجافانية» في منتصف القرن التاسع الميلادي. في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر تصارع على تلك المنطقة التايلنديون والبرتغاليون والهولنديون، في القرن الثامن عشر بدأت بريطانيا بالاإهتمام بتلك المنطقة مع تدخل شركة الهند الشرقية بسياستها التجارية والاإستعمارية المعروفة. وفي بداية القرن التاسع عشر وعلى التحديد في 29 يناير 1819 وصل السير ستامفورد رافلز إلى سنغافورة وتوصل إلى معاهدة مع الحكام المحليين لإدارة تلك الجزيرة.

من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق

جولات في أمريكا وأوربا والشرق الأقصى وأستراليا

عباس الطرابيلي (1998)

صحفي وكاتب معروف

أمريكا بعيون مصرية
أمريكا في أقصى الغرب

اسمحوا لي أن أكتب لكم عما رأيته في أمريكا. فلم أذهب إلى الولايات المتحدة سائحا، بل ذهبت في رحلة استكشافية طويلة، ربما هدفها إعادة استكشاف أمريكا. أو قولوا هي أمريكا... ولكن بعيون مصرية معارضة، تبحث عن الحقيقة في كل مكان.

ولكن في البداية يجب أن يكون واضحاً أنني لست «كريستوفر كولومبس» «1451-1506»... هذا البحار الذي ترك مدينته «جنوة» وجاب البحور والمحيطات تحت العلم الإسباني لأكثر من 10 آلاف ميل، غاب وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي الآن) ليأتي بالذهب والثروة والمستعمرات للملكة إيزابيلا وزوجها فردناند ملكا إسبانيا اللذين وضعا أسس الإمبراطورية الإسبانية فيما وراء البحار...

- نعم لست كولومبوس الإيطالي الأصل الإسباني العلم الذي احتفلت أوروبا وأمريكا بمرور 500 سنة على اكتشافه، بل وصنعت سفينة معاصرة على نفس الطراز الذي قاد به المغامر كولومبوس

عملياته البحرية الأسطورية. وللحقيقة يجب أن نعترف أن كولومبوس هذا ليس هو الأوروبي الأول الذي وضع أقدامه على الأرض الغربية: غرب بحر الظلمات، فقد سبقه إليها «أمريجو فيسبوتشي...» واعترافا بفضل هذا البحار الكبير (أمريجو) أطلقوا أسمه على القارتين الجديدتين: أمريكا الشمالية حيث كندا والولايات المتحدة والمكسيك. وأمريكا الجنوبية حيث الدول اللاتينية الكبيرة، مثل: البرازيل والأرجنتين وبوليفيا وبيرو... وغيرها. وبين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية هناك أمريكا الوسطى وكل جزر وجمهوريات البحر الكاريبي الأسطوري بثرواته الأسطورية بداية من عصر القراصنة القدامى إلى عصر القراصنة الجدد تجار المخدرات ومروجيه...

لست أنا إذن، كولومبوس الجديد الذي أتى بعد 500 سنة ليكشف أمريكا من جديد... بل أنا زائر يفتح عينيه جيداً. ويفتح أذنيه جيداً. يسأل ويسجل ويكتب!!.

- ولست أنا ماركو بولو «1254-1324م»، الرحالة الإيطالي الغريب الشكل والأطوار الذي ذهب إلى الشرق على عكس مسار رحلة كولومبوس في رحلة استمرت 24 عاما. فأعاد بولو اكتشاف الصين وبلاد المغول والتيبت، راكبا جملا مرة وحميرا وكثيرا من البغال والخيول مرات... وعاد ماركو بولو عام 1295 م إلى مدينته فينيسيا ليسجل للناس أسرار رحلته الغريبة حتى وصل إلى بلاد إمبراطور الصين كوبلاي خان. وأسرهم وبهرهم بثقافته ومعلوماته... وأسحاره. وإن كان هو نفسه قد نبهر بالعلوم والثقافة الصينية...

- وقطعت آلاف الأميال من مصر إلى أمريكا مروراً بفرانكفورت أكبر مطارات أوروبا ذهابا وعودة.

ووصلت إلى واشنطون عاصمة الولايات المتحدة بدعوة من الحكومة الأمريكية لأغطي وأبحث أسرار حملة الانتخابات الأمريكية... وأتابع ماذا بعد البركان الأسود الذي أنفجر في «لوس أنجلوس» اعتراضا على سوء معاملة البيض للسود، ثم لأغوص في أعماق الحياة الأمريكية، باحثا عن أسرار قوتها، وربما عوامل ضعفها، خصوصا بعد أن غاب الاتحاد السوفيتي عن الوجود، وأصبحت الولايات المتحدة هي القوة الأوحد في نهاية القرن العشرين.

- وأمضيت في العاصمة الأمريكية أسبوعاً كاملاً أقابل من أشاء من رجال السياسة والاجتماع، من أقطاب الحزبين العملاقين: الجمهوري الحاكم برئاسة الرئيس جورج بوش، والديمقراطي بيل كلينتون حاكم أركانسو القصوى لكي يصبح مرشح هذا الحزب من أجل الفوز برئاسة أمريكا والوصول إلى البيت الأبيض... ثم التقيت برجال الحصان الأسود في معركة الانتخابات الأمريكية: المستقل روس بيرو الذي بدأ حياته العملية بمبلغ 1000 دولار اقترضها من زوجته مارجو عام 1962 م، ونجح بعد 30 عاماً في أن يصبح واحداً من أباطرة المال في أمريكا، وأصبح مالكا لثروة تصل إلى 3500 مليون دولار!!.

- ومن العاصمة الأمريكية، في أقصى شرق القارة الأمريكية، انطلقت إلى أقصى الجنوب... إلى «لويزيانا» المستعمرة الفرنسية السابقة التي باعها نابوليون بمبلغ 15 مليون دولار عام 1803 للرئيس الأمريكي «توماس جيفرسون»... ذهبت إلى عاصمة الولاية ذات الأسم والأصل الفرنسيين (لاحظوا الأسم... من لويس) إلى «نيو

أورليانز» حيث مصب نهر المسيسيبي العظيم ثاني أطول أنهار العالم بعد نهر النيل. وفي «نيو أورليانز» نفس مأساتنا عند مصب النيل في دمياط ورشيد حيث يتآكل الشاطئ ونفقد كل عام كيلو مترات عديدة من الأرض يلتهمها البحر... وهم في لويزيانا يخشون من زمن ليس ببعيد أن تتحول فيه مدينتهم الكبيرة التي تقع تحت مستوى النهر الآن، إلى فينيسيا جديدة... ولكن في أمريكا الشمالية عند أقدام خليج المكسيك... وهم - في لويزيانا- وضعوا العديد من المشروعات في محاولات مستميتة للدفاع عن الأرض (ليتنا ندرسها، والكلام موجه لوزارة الأشغال والثروة المائية في مصر...).

- ومن نيو أورليانز - لويزيانا- طرت إلى تكساس... إلى مدينة «دالاس» أكبر مدن الولايات وإن لم تكن عاصمتها، لأن العاصمة مجرد مدينة صغيرة قد لا يذكرها أحد، اسمها «أوستن»!! وتكساس في أذهان المصريين وذاكرتهم هي ولاية «الكاوبوي» راعي البقر والصراع بين الهنود الحمر أصحاب الأرض الحقيقيين والمغامرين القادمين من شتى بقاع أوروبا. ودالاس هي عاصمة البترول الأمريكي هي ومدينة «هيوستون». وفي دالاس التقيت بشخصيات عديدة منهم السياسي اليوناني الأصل كريس سيموس الذي زار مصر عام 1952 م، ثم شاهد الملك فاروق بعد طرده يتناول عشاءه في كابري!! وما زال مستر سيموس يحلم بالعودة إلى حي «الأزاريطة» في الإسكندرية. ولمن لا يعرف، فإن تكساس ظلت جمهورية مستقلة لمدة 10 سنوات لها سفراد في العالم... وممثل في واشنطون!!.

- ومن دالاس طرت إلى سانت لويس/ ميسورى لألتقي بواحد

من أفضل أصدقائي المغامر الذي هاجر هو وكل أسرته وأخواته إلى أمريكا في الستينيات وأصبح الآن موظفا مهما في وزارة العدل الأمريكية: عبد السلام أبو شحاتة!! وسانت لويس من مناطق الوسط الأمريكي، وفي سانت لويس وجدت الطبيعة الأمريكية... والغابات والناس والألفة... وسهرة لن أنساها في ملهى ليلي هناك!!.

- ثم طرت إلى ليتل روك عاصمة ولاية أركنسا، وبالمناسبة نحن نكتبها في مصر خطأ: أركنساس!! وليتل روك وأركنسا أو أركانسو هي قلعة بيل كلينتون حاكمها منذ عام 1981 م... الديمقراطي الذي فاز بالمكتب البيضاوي بالبيت الأبيض، وأصبح واحداً من أشهر رؤساء أمريكا بسبب فضائحه الغرامية. وفي ليتل روك عشت تجربة انتخابية كاملة ساعيا وراء معرفة أبعاد المعركة وكيف تجري عمليات التصويت. وسوف أعود لهذه النقط بالتفصيل، لأنني أعتقد أنها النظام الأمثل للقضاء نهائيا على عمليات تزوير الانتخابات... في مصر.

وانطلقت إلى فينكس في ولاية أريزونا في جنوب وسط الغرب الأمريكي، حيث أرض الهنود الحمر، لأن 27٪ من إجمالي أرض هذه الولاية مازال ملكا للهنود الحمر وفقا للمعاهدات والاتفاقيات الموقعة بين زعماء قبائل الهنود الحمر ورؤساء أمريكا... وقد يعجب المرء منا الآن أن الهنود الحمر هنا في أريزونا، وفي فينكس بالذات يمكن أن يغلقوا الطريق الذي يقع نصفه... داخل ممتلكاتهم. وفي فينكس أكبر مركز في العالم لأبحاث الطاقة الشمسية، لأنهم يطلقون على المدينة أسم وادي الشمس. وفي فينكس أيضا زرت مشروعا مماثلا للسد العالي كان هدفه السيطرة على «سولت ريفر» أي النهر المالح

الذي كان يفيض فيغرق كل ما حوله، وهو النهر الذي ينبع من ولاية كولورادو. وللعلم، للهنود الحمر في أريزونا عدة مستعمرة منها فيها أكثر من 4000 هندي أحمر يزرعون القطن والذرة، ويؤجرون أرضهم أحيانا للمزارعين البيض ليزرعوها نيابة عنهم!!!.

وعدلت برنامج زيارتي لأطير إلى مدينة القمار الأولى في العالم: لاس فيجاس. ليس لأقامر، ولكن لأعرف. ثم لأركب طائرة مروحية صغيرة تنقلني طائرا فوق أعجب جبال العالم: جراند كانيون. بين عالم المقامرات وعالم المغامرات عشت 24 ساعة كاملة لم أنم خلالها: الليل كله أجوب نوادي القمار التي سحرت العالم في أفلام السينما. والنهار طائرا فوق جبال جراند كانيون، ثم هابطا في مطارها الصغير لأرى عجائب هذه الجبال التي سحرتني، وأعود وقد منحوني شهادة بأنني نزلت إلى جراند كانيون.

- وبعد 24 ساعة حافلة طرت إلى أقصى الغرب... إلى ولاية كاليفورنيا... وبالذات إلى مدينة الأحداث الرهيبة: لوس أنجلوس، تلك الأحداث التي بدأت ظهر الأربعاء الغاضب 29 أبريل لتخسر فيها أمريكا أكثر من 500 مليون دولار، ويفقد رجال المدينة أكثر من 30 ألفا أو 40 ألف وظيفة ضاعت بسبب تحطم المحلات وأوجه النشاط الاقتصادي في المدينة، وهم هنا يجمعون على أن ما حدث في لوس أنجلوس هو «رسالة موجهة إلى الأمة الأمريكية»... أو قل إلى الحكومة الأمريكية. رسالة تحذير وجرس إنذار يمكن أن يهدد وحدة الأمة الأمريكية التي تتكون الآن بالفعل من أمتين إحدهما بيضاء والثانية سوداء، أو من الآسيويين ومن القادمين من أمريكا اللاتينية.

وبين متابعة أحداث البركان الرهيب الذي استمر 4 أيام وما زالت تحت الدراسة والبحث... أمضيت يوما رائعا في مدينة «وولت ديزني» التي أنشأها رسام الكارتون الشهير عام 1955 م، لتكون مدينة للصغار الذين انبهروا بشخصياته الساحرة ميكي ماوس والبطة دونالد، ولكن المدينة الساحرة أصبحت مدينة للكبار أكثر منها للصغار!.

اللقاءات الأولى بين المستوطنين الجدد في أمريكا والسكان الأصليين من الهنود الحمر من بيفرلي هيلز... إلى مستعمرات الهنود الحمر!

لم تكن أحلامي -وأنا بعد صبي دون الغاشرة- تتجاوز الذهاب إلى سينما «اللبان» في دمياط لمشاهدة أحد أفلام الغرب الأمريكي، أفلام رعاة البقر، والصراع بين البيض القادمين من أوروبا، والهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين. ولم يكن هناك - في هذه السن المبكرة- أكثر متعة من مشاهدة جاري كوبر أو جون واين، وكلاهما كان نموذجا لراعي البقر الشهير بملابسه التقليدية وحذائه ذي العجلة الحديدية المسننة... والمسدسين يتدليان من جانبيه... راعي البقر الشهير في ولاية تكساس، أو في الغرب الأمريكي... فماذا في هذا الغرب الأمريكي؟!.

ذهبت إلى هذا الغرب، إلى قلب الغرب الأمريكي... فماذا عن عالم جاري كوبر، أو «شين» الفتى الغامض القادم من المجهول، أو الفتى الشهير الذي كان جنرالا في الجيش الأمريكي وبطلا شعبيا

في الحرب العالمية الثانية: أودي مورفي راعي البقر الشهم الشاب الجميل!... فأين أنا الآن من أفلام على شاكلة «شوارع لاديدو» التي شاهدتها في الأربعينات! بل أين أنا الآن من عالم ديزني لاند الغريب، وقد بهرتني – وبهرتنا كلنا– أفلام ديزني لاند العلمية الشهيرة، أكثر مما بهرتني أفلام الكارتون التي برع فيها وفي تقديمها الرسام الشهير: وولت ديزني!!.

ذهبت إلى الغرب الأمريكي، وفي عقلي الخلفي مسلسلات «زورو» البطل الأسطوري الذي ينصر الضعيف على القوي، على غرار مسلسلات روبين هود... ذهبت وفي ذهني الذي مازال يقظا حلقات فومانشو الجبار، وأنا الآن في قلب هذا الغرب الأمريكي. وذهبت إلى «هوليوود» حيث أكبر ستوديوهات السينما العالمية التي أخرجت لنا روائع أفلام الغرب، وتجولت في «بيفرلي هيلز» حيث قصور نجوم هوليوود...

قصور أسطورية تحميها وتتحكم فيها نظم الأمان والتأمين غير المرئية. وفي هوليوود وبيفرلي هيلز طافت بذاكرتي السينما المصرية التي كانت في مقدمة أعظم صناعات مصر منذ الثلاثينات وحتى أواخر الخمسينات، ثم قتلوها أو قتلتها الدكتاتورية التي قتلت كل ما هو رائع وجميل وعظيم فوق أرض مصر كلها، وكيف أفقدوها عرشها السينمائي كعاصمة لسينما الشرق، ولكنها تنازلت عن عرشها مرة للسينما الإيطالية الواقعية... ومرة للسينما الهندية التي سارت على نفس الطريق المصري، وقدمت للعالم الثالث... سينما الخرافات والبطل الأسطوري الذي يقتل 100 و 1000، ويصارع التماسيح ويركب الأفيال... وأنتم تعرفون الباقي!!.

وتجولت في عالم السينما، ودخلت مستعمرات إقامة الهنود الحمر في ولاية أريزونا، على بعد أميال قليلة من وادي الشمس، من فينكس. وتعرفت على عالم الهنود الحمر على الطبيعة، وسط مزارعهم... وفي بيوتهم الحديثة، وداخل أقسام الشرطة داخل المستعمرة الهندية. وكلها بعيدة كل البعد عن عالم الخيال الذي قدمته لنا أفلام الهنود الحمر، وكيف كنا نصفق بحرارة عندما يقتل الأمريكي الأبيض عشرات، بل مئات الهنود الحمر بالأسلحة النارية الحديثة... بينما كان الهندي يقابلهم بالسهام والخناجر... وسلخ الرؤوس!!.

ووقفت أتعجب وأنا وسط مستعمرة الهنود الحمر في وادي الشمس في ولاية أريزونا التي زرعها الهنود الحمر بأجود أنواع القطن، ولكن قصير التيلة!! أتعجب مما قدمته لنا السينما الأمريكية عندما كانت سرية صغيرة من الجيش الأتحادي تبيد فرقة هندية أو تدمر قرية كاملة للهنود الحمر الأسطوريين من الأباشي والكومانشي والهوهوكوم من الهنود الحمر الذين رأيتهم في مستعمرتهم قرب فينكس في ولاية أريزونا.

حكايا، وحكايات من الغرب الأمريكي: من لوس أنجلوس وهوليوود وبيفرلى هيلز... من لاس فيجاس في نيفادا، ومن لونج بيتش وسان دييجو... عالم غريب، سوف أقدمه هنا، أقدم لكم أمريكا العصر والألوان... أمريكا المعاصرة التي أصبحت القوة الوحيدة الحاكمة في عالم اليوم...

الأمريكي... مواطن محلي
عبد للإعلانات!

الأمريكي العادي ليس مواطنا عالميا!! أي أن معلوماته عن القضايا والمشاكل الدولية تكاد تكون معدومة، وتصل إلى حد عدم معرفته بأسماء رؤساء الدول، فضلا عن عدم معرفته بعواصم هذه الدول.

والأمريكي مواطن محلي بكل معنى الكلمة، ولا يهتم بقضايا أي دولة إلا إذا كانت دولته طرفا في نزاع عسكري معها، لأن هذا يعني شيئين:

- **الأول**: إرسال قوات أمريكية إلى هذه الدولة، وهذا يعني تحريك «بشر» أمريكيين، فضلا عن تعريض حياتهم للخطر، وتلك قمة الخطر عند الأمريكي العادي.

- **والثاني**: أن هذا يعني نفقات مالية على القوات الأمريكية في بلد النزاع. والأمريكي أصبح حساسا الآن – للغاية - تجاه إهدار الأموال الأمريكية على قضايا خارجية، وأصبح يفضل أن تنفق الأموال الأمريكية داخل الأرض الأمريكية، ولهذا وجدنا بعض المرشحين لمجلس الشيوخ ينادون بعودة الدولار الأمريكي إلى بلاده... إلى أمريكا!!.

- والمواطن الأمريكي يهتم في المقام الأول بالقضايا الداخلية، مثل: نظم التعليم والوظائف والخدمات الصحية والبطالة والمساعدات

المالية والتأمينات والأسعار والمساكن والتضخم. فالرئيس الأمريكي يركز في حملته الانتخابية على تطوير نظم التعليم حتى يستطيع الأمريكي اللحاق بالألماني والياباني والإنجليزي. ومنافسه الديمقراطي يركز في حملته الانتخابية على نظم المساعدات التي تقدم للعاطلين ورفع مستوى المعيشة. أما المرشح المستقل فتتركز حملته الانتخابية على «الأسرة الأمريكية القوية»، أي إعادة الترابط إلى البيت الأمريكي الذي أصابه التمزق، كما يركز على عودة القوات الأمريكية إلى قواعدها!!.

- ومن يتابع محطات وقنوات التليفزيون، على تعددها، ويشاهد ما تعرضه على المواطن الأمريكي يتأكد أن الأمريكي مواطن محلي في المقام الأول. وهنا لا يمكن أن نغفل دور التليفزيون في «صنع» المواطن الأمريكي، وتحديد اهتماماته... فالقضايا المحلية تكاد تحصل على «كل» وقت هذه المحطات والقنوات. وما يتبقى تلتهمه الإعلانات الكاسحة، التي لها الأولوية في كل ما يقدم للمواطن الأمريكي!! حتى إن المواطن الأمريكي بداية من بطنه، إلى ملبسه، إلى مسكنه، إلى سيارته، إلى الريجيم القاسي الذي يعيش عليه... أصبح كل هذا تحت سيطرة وكالات الإعلانات.

- وأيضا من يتابع ويقرأ الصحف الأمريكية الكبيرة المعروفة لنا والصغيرة المحلية، يجد أن المقام الأول فيما تنشره هو للقضايا المحلية، والقليل منها يعطي بعض المساحات، على استحياء، للأخبار والقضايا العالمية، وخصوصاً ذات العلاقة بأمريكا.

ولهذا كله ليس غريباً أن نجد الأمريكي... مواطنا محليا، على عكس الإنجليزي أو الفرنسي، أو المصري!!.

مائة وثمانون يوماً في بلاد اليانكي

د. وفاء إبراهيم (2002)

د. وفاء إبراهيم أستاذة الفلسفة في جامعة عين شمس بالقاهرة وكتابها الذي يصف رحلتها إلى أمريكا في صيف 1997 نشرته في عام 2002 أي بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. ويتناول كتابها موضوعات عدة تشمل: النساء في أمريكا، التسوق في أمريكا خصائص الثقافة الأمريكية – المعاصرة، العولمة، مونيكا، والميتا فيزيقا وينتهي الكتاب بفصل تحت عنوان «أمريكا... النداهة».

أمريكا... النداهة

قبل الرحيل بأيام قليلة... وقبل أن أستدير عائدة إلى بلادي التي اشتقت إليها وإلى أمي وإخوتي، تداعت إلى ذاكرتي صور مقابلتي مع القنصل الأمريكي، وتذكرته حين سألني: لماذا أنت مهتمة بالقيام بهذه المهمة في خارج بلادك، على حين أن كثيراً من الأساتذة قد لا يهتمون بذلك؟ قلت له وقد تلبستني فجأة تلك الروح المصرية التي تتميز بخفة الدم، كما يقولون: إنني أرغب في اكتشاف أمريكا! ضحك قائلاً: ولكن كولمبس قد اكتشف أمريكا فعلاً! قلت له: إن كولمبس اكتشفها بوصفها مكاناً جغرافياً، بل إنه لم يكن يعرف أنها ليست هي الهند، أما أنا فإنني أريد أن اكتشفها بما هي حياة وصيرورة as a process! ففتح الرجل عينيه مندهشاً، قائلاً: لطالما كنت أحب

الفلسفة، وذلك لأن أصحابها لديهم دائماً وجهة نظر مختلفة! قلت له: أتمنى ذلك!.

ولقد كانت أمريكا بالنسبة إليّ - قبل أن أزورها- مجرد صفحة في كتب التاريخ، أو صفحة في كتب الفلسفة، أو حكاية على لسان زائر لها، أما الآن فهي تتبسط أمامي بانوراما شاسعة متكاملة، بكل جوانب واقعها الحي اللاهث.

ولكن هل استطعت حقاً أن أكتشفها عياناً بياناً، في تلك المدة الوجيزة التي عشتها في جزئها الشمالي، في مريلاند وكذلك في فيلادلفيا ونيوجرسي؟ أم أنه من الأفضل أن أقول أنني حاولت «كشفها» من خلال منظور فكري وتمثلي لفلسفتها البراجماتية، التي تتناسج مع كل مجالات الحياة الواقعية ومواقفها؟

ولما كان الأمر بالنسبة إليّ مجرد «انكشاف» وليس محض «اكتشاف»، لذا أطرقت وأنا في حيرة من أمري. وفكرت في أن الوسيلة المثلى هي «الحوار»، أن أقيم حواراً مع شخص ما، لأناقشه ويناقشني، حول أمريكا، ولأواجهه - ويواجهني- بحقائقها، وأسرارها، وخفايا ما تبطنه وراء كل ما تعلنه، ووراء كل ما تحير به العالم يوماً بعد يوم!.

وقلت في نفسي: إنني في أشد الحاجة إلى شخص يحاورني، أو «عقل» يناقشني، حتي ولو كان ذلك الشخص أو ذلك العقل هو «شخص» أمريكا نفسها، أو «عقلها»!.

وإذا بصوت عميق مجلجل وقوي، يملأ المكان ويهز أرجاءه، ويهزني معه هزّاً، بقوله: ها أنا ذا، أنا أمريكا جئت إليك لأحاورك!.

وأرفع رأسي في اضطراب لأنظر حولي، وإذا بي أراها أمامي:

أمريكا! بشحمها ولحمها: امرأة فارهة سامقة ومضيئة، قوية الكيان ممشوقة ومهيبة، موثقة البنيان، ممتدة وممتلئة حقاً على نحو عجيب، ولكن بكيفية جعلتها متسقة القد، رائعة القوام، كأنها صرح من الصروح القديمة البهية الرائعة: جميلة وجليلة، لم أر امرأة في مثل جمالها وجلالها! وفي وجهها المضئ صرامة وجهامة، وفيه أيضاً ابتسامة غامضة، وخفية، لا تكاد تبين، ومن عينيها الواسعتين تشع قوتها النفسية الهائلة، ببريق وألق أخاذين آسرين، وإشعاع عجيب، جعلني أهيم في وجهها اللانهائي، ذي الألوان والأنوار، فصرت كأنني أسبح مع أمواج بحار ضيائها، وأحلق بكل أجنحتي في رحابها، وأعلو معها على الواقع وعلى كل ما فيه!.

وكنت برغم سباحتي وتحليقي وعلوي لا أكاد - وأنا المتأملة الصبورة المتعودة على إدراك كل صور الجمال -لا أكاد أدرك حدودها اللانهائية، أو أقف عند ملمح من ملامحها الرائعة، أو وجه من وجوه جمالها المشع، أو قسمة من قسماتها الأخاذة! كان بهاؤها غريباً وآسراً، فأخذت بها بقوة، ودهشت لمحضرها، ودهشت أيضاً لإدراكها أنني كنت في حاجة حقا، إلى مواجهتها، وإلى الحوار معها قبل عودتي إلى بلادي!.

وقلت لنفسي وأنا في اضطراب شديد: هذه هي إذن أمريكا! هذه هي النداهة! نعم إن أمريكا هي النداهة! وإنها هي هي، بجاذبيتها وأسرها، وجبروتها، وإحكام فخاخها، وأسر نداءاتها وإغراءاتها، لا مهرب منها إذن ولا نجاة ولا فكاك!.

ولكن كيف يكون ذلك؟ لابد من المقاومة، لابد من إرادة النجاة

من أسرها والسباحة في فلكها، وإلا انتفى الحوار الحقيقي بيننا! وفوجئت بها بعد أن جلست على «الكرسي الكبير» دون استئذان كأنها في بيتها - فوجئت بها تقول، برفق ساحر، وقد ملأ صوتها العميق الفضاء المحيط: كيف حالك يا ابنتي العزيزة؟ لقد تابعتك على مدى الشهور الماضية وكنت معك منذ جئت إليّ -إلى أمريكا- وقد عرفتك بوصفك «المصرية»، إذا أعجبت بشخصيتك وفعاليتك، وفهمت اليوم أنك تريدين أن تحاوريني، وأن لديك ما ترغبين -بقوة- في أن تواجهيني به. فرأيت أن ذلك منك حسن! وقلت: ليكن لك ذلك! وإنني لأريد حقاً أن أحاورك أيضًا!.

وازدادت دهشتي، وعدت أستغرق في انبهاري! ولكني سرعان ما تمالكت نفسي، وقلت: يسعدني ذلك!.

وأخذت أفكر في سرعة البرق، أو في «لا زمان»: لابد أن يكون الحوار بيننا حقيقياً، أي حواراً نديًا، يقوم على تبادل الأخذ والعطاء، وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق مع أمريكا! وهذا لم أضعه في الحسبان حين طلبت الحوار معها - فما العمل؟.

ولذت بكل ما لديّ من زاد فلسفي، وأخذت أبحث، في العتاد الفكري والمنهجي، عما أتخذه عدة لي في هذا الحوار، لكي يعينني على مواجهتهاو ولكي يعينني على الفهم والبصر بوجوهها وإعمال البصيرة للوعي بأعماقها. فأمريكا ظاهرة معقدة غاية في التعقيد، وإنتاجها للمعاني والمواقف والظروف والأوضاع المحلية والعالمية المعقدة والمربكة والخصبة والثرية لا حد لها، فبأي نظرة أو منهج يمكن أن أتعامل معها، وأقيم الحوار معها؟.

لقد فكرت أن أيسر وسيلة هي الحوار الذي يعتمد على النظر

الفينومينولوجي (الظاهراتي) والتأويلي والجشطلتي (الكلي) الذي يسمح لي بأن أراها في كليتها وفي أنحائها، في ظاهرها وفي باطنها، وفي ماهيتها وفي تحولاتها، في وحدتها وفي جزئيتها، وبذلك أستطيع أن أبني وجودها ومعانيها في وعيي، وأستطيع بذلك أن أصل إلى «تأويل» لأمريكا في تكاملها وشمولها، وفي جدلها الذي لا يقف عند زاوية واحدة، أو لحظة واحدة، من لحظات وجودها وصنع معانيها ومراميها.

نعم إن هذه النظرة الجشطلتيه، بجناحيها الفينومينولوجي الظاهراتي والتأويلي (الهرمنيوطيقي)، تعتمد على نظرة المدرك -نظرتي- ولكنها ترعى أيضًا تحولات الشيء المدرك -وأوضاعه المختلفة وزواياه المتعددة - أو ما يمكن أن نسميه نظرته أو رؤيته المنهجية هو أيضًا، وبذلك وحده نكون أقرب إلى بناء «حقيقة ذاتية وموضوعية» معاً وفي الوقت نفسه، وبذلك يقوم الحوار بيني وبين أمريكا على أساس من الحركة الفكرية الحرة الجدلية والإرادة الحرة الجدلية المكافئة.

وإذا بها تفاجئني، مرة أخرى، بأنها لا تزال تلاحقني أو تلاحق أعماقي بقراءة أفكاري، فتقول: إن الحوار يا عزيزتي لا يقوم إلا بين طرفين لكل منهما الحق في الحركة الفكرية الحرة والإرادة الحرة. وسوف أضرب لك مثلاً يبين، أوضح ما يكون البيان، عن معنى الحوار عندي. إن أوضح صورة لذلك إنما تتجلى في تلك المحاورة التي تتم بين لاعبين ماهرين موهوبين لكرة القدم، مثلاً، حيث يصل أداؤهما إلى تحقيق أقصى متعة لهما وللمشاهدين، حين يتبادلان الحركة

البارعة والرقابة النشطة، على نحو متكافئ من القوة والفن والإبداع والذكاء.

وجدتني - دون أن أدري- أرد عليها، وقد شجعتني بساطة منطقها، ووضوحه المقنع، فأقول: نعم يا سيدتي؟ وإنك لم تبعدي عن الحقيقة كما نعبر عنها في اللغة العربية. فأصل الكلمة في اللغة العربية هو أصل حركي، ويقوم على معنى التبادل، ولذلك فإنها عندما انتقلت إلى صورتها الفكرية، صارت تشير إلى أن الحوار الفكري الحقيقي لا يمكن أن يتم حقًا إلا بين أنداد، يعترف كل واحد منهم اعترافًا متبادلاً بأن الآخر ند له في كل قدراته الحوارية، وإلا تحول الحوار إلى محض مساءلة أو استجواب من طرف، وإذعان أو امتثال من طرف آخر.

ثم انعكست على نفسي مرة أخرى متسائلة: ولكن كيف سيتم الحوار إذن بيني وبين أمريكا؟ وإذا بها -أمريكا- تخاطبني بلهجة من يستجوبني قائلة بتحد واضح: هل تظنين أن الحوار لا يتسنى له أن يتم إلا بين إنسانين من بني آدم مثلك؟ ثم أخذت تنظر إليّ مليًا نظرة تعني أنها تمتلك قدرة لم أتوقعها على كشف أغواري.

وأخذت من المباغتة: يا إلهي! هذا ما كنت أقصده بالضبط. قلت لها: نعم لقد كنت أتساءل حقًا عن إمكان الحوار معك، مع أمريكا، وأنت دولة، وشعب، وأرض، وعالم كامل من الحياة؟.

قالت: إذا كانت «الشخصية» في حالة الإنسان الفرد هي ذلك الكيان الذي تتكامل فيه الخصائص المميزة والمحددة لماهيته وتلك الخصائص التي تقوم طبيعته العقلية والروحية والأخلاقية، فإن الأمر في شخصيات الأمم والشعوب لا يبتعد عن ذلك ولا يختلف

عنه، فشخصية الشعب أو الأمة تنصرف دلالتها إلى الخصائص والسمات الفكرية والروحية والأخلاقية والعملية. وفوق ذلك فإنه كما أن شخصية الإنسان أو ماهيته ذات إطار وبنية، فإنها أيضًا لها كذلك الوجه الدينامي المجدد لتاريخها وأطوارها، الذي يترك أثره على ماهيتها وبنيتها وبشكل خصائصها في الزمان.

استرسلت معها في «الحوار»، وقلت في محاولة صادقة لإقامة أرضية صالحة لحوارنا: ومع ذلك يظل هناك سؤال فاتت عليك قراءته في داخلي أو استنتاجه والإجابة عنه.

قالت: هات ما عندك! قلت: سأوافقك على أن الأمة لها «شخصية» مثل الإنسان الفرد، فلكل منهما ذاتيته وهويته،بنيته، ومصادره الروحيه والفكرية والأخلاقية والسلوكية إلخ. فهل يعني ذلك حقًا أنه يمكن أن تكون بينهما بهذا كله الندية التي تقيم بينهما حوارًا حقيقيًا، والتبادل الذي يجعل هذا الحوار يقيم جدلاً حقيقيًا؟.

قالت: أرأيت إذن كيف أنك استدركت علي ما لم يكن ينبغي لك أن تظني أنه موضوع للاستدراك؟.

قلت مندهشة: وكيف يكون ذلك؟.

قالت: إنني أعرفك وأخاطبك بوصفك مثقفة من مصر، مصر التي وهبت العالم الحضارة وواصلت مسيرتها آلافاً من السنين، على حين كانت كل الشعوب حولها عيالاً عليها وصغاراً. وأنا أرى أن المثقف سواء كان في مصر أو في غيرها، هو الأكبر (فما بالك إذا كان مصريًا!). ثم أضافت بنبرة ساخرة: إلا إذا كان حال المثقفين في مصر قد تغير ولم أدرك ذلك بعد! على أي حال أريد أن أقول إنني

أرى أن المثقف أكبر من الدولة ومن الشعب ومن الأمة، بل إنه أكبر من حضارة بأكملها! نعم إنه بمقاييس القوة هو الأضعف، فما أيسر على واحدة من هذه الذوات أن تهدر الفرد المثقف وتتغلب عليه بمختلف الصور المادية أو حتى المعنوية، بإهماله مثلا، وعدم الاستماع إلى نداءاته، وفي هذه الحالة فإن الأمة هي الخاسرة - أقول إذن إن الأمة هي الأقوى، ولكن بمقاييس القيمة فإن المثقف هو الأكبر. وأخص بطبيعة الحال المثقف الحقيقي وليس مجرد حامل افكار، بل ذلك الذي يبدعه وينتجه ويكتشفه ويعيد بناءه، بما لديه من موهبة وتفان وإخلاص وصدق.

وأخذت أردد (وأنا مؤمنة أشد الإيمان بهذا الرأي): المثقف هو الأكبر؟ هو الأكبر...؟ نعم! وليت المثقف في بلادنا وفي كل بلاد العالم يعي هذه الحقيقة، ويفرضها على نفسه أولا، دون أن يتخلى عنها جريا وراء طمع ما أو امتثالاً لإغراء ما، ثم يفرضها على الواقع ثانيًا، ما دام قد فرضها على نفسه هو أولاً! إذن لتغير العالم حقًا، ولنجت البشرية مما يهددها من أخطار. ولما كان هذا هو الحال الذي يعيشه المثقف الآن.

ثم أكدت أمريكا كلامها، مرة أخرى، قائلة: نعم، نعم، إن المثقف أضعف من الدولة والأمة والشعب والمؤسسة... إلخ، ولكنه أعلى وأكبر منها جميعًا، بل من العالم كله -لأنه هو الذي يعطي المعنى لكل هذه القوى وهذه الكيانات أنتم أيضًا- وأنت مثقفة ومثقفة مصرية! فهلم إلى الحوار إذن يا ابنتي العزيزة، تعرفين أنك، في واقع الحال، تواجهينني «يا فيلسوفتي» بوصفي موضوعًا لك، وليس بوصفي موضوعًا

للحرب أو الصراع التكنولوجي فهذه حالات لا تحقق الندية معي.

إنني موضوع لإدراكك، وأنا أعلم أن الجدل بين الذات والموضوع لديك الأولوية، ولكنني في النهاية، أنا في يديك، بل ملك يديك، لا أستطيع أن أتصورك إلا على نحو جدلي تقودين أنت سفينته الفكرية وأبحر أنا معك، نحو ندى، نعم، ولكن أنت التي تحددين المسار، وهذه هي البداية الحقيقية جهة أي «موضوع» متحقق في عالم الواقع، حتي ولو كان هذا الموضوع هو نفسها.

وأخذت أشعر بالاقتناع بوجهة نظرها. فهي حقًا «موضوع»، ولكنني حين أريد أن أحاورها وتحاورني محاورة ندية، فإنها ها هنا.....! لأن ذلك يعني قبولي دخول المغامرة وبأن أكون أنا أيضًا موضوعًا.... فإذا كنت أريد أن أستكشف - بالحوار- حقائق أمريكا وخفاياها.... قوتها وحيويتها، فلابد أن يؤدي هذا الحوار الندي بيننا إلى أن تستكشف كذلك حقائقي، أو بالأحرى حقائقنا وخفايانا، ومصادر ضعفنا و... و... استطيع أن أقول المزيد! لا أستطيع!.

وقلت لنفسي: هذه هي ضريبة كل مغامرة: تكشُّف جديد للذات، وتجلٍّ لحقائقها، مهما كانت مرة أو حلوة. ولكن يظلُّ الأمرُ المهم هو إمكانية إعادة خلق الذات من خلال التكشف الجديد لحقائقها. ثم حزمت أمري وأقبلت على سؤالها، سؤال السيدة «أمريكا»: فما خصائص أمريكا إذن؟ ما خصائصك أنت؟

أجابت، وقد انبسطت أساريرها، واستضاءت بإشعاعات الرضا والارتياح، والحبور والمواتاة، والتجلية والإقبال، فاحتوتني ببسطها، واتسعت لي آفاقها، وغمرني نورها، وهي تقول: لعل أمريكا تعد واحدة من تلك البلاد القليلة التي تتميز بشخصية خاصة ومتفردة، تثير

الانتباه وتلفته إلى حقيقة أن عظمة الأمة وقوتها، لا تقاس بما كان عليه ماضيها تراثًا وحضارة، بل تقاس بمدى فاعليتها في الحاضر وبمدى تأثير دورها في توازنات القوى العالمية من حيث الندية والمقاومة والمواءمة، أو حتى من حيث الهيمنة والصراع والسيطرة، وهذا هو حالي منذ عدة سنوات.

فأومأت أن نعم! وواصلت قائلة، دون أن تلاحظ تململي من فخرها بصفات الهيمنة والسيطرة وحب الصراع: فهذه الأرض، منذ وصل إليها كولمبس، وظن أنها امتداد للهند، وكان ذلك في عام 1492، أي منذ خمسة قرون كاملة، استطاعت من خلال فاعلية مثمرة لحركة هجرات العقول المتتالية أن تثبت أنه بقدر ما يساوي الإنسان تساوي الأرض، فإذا كان المكان عبقريًا من حيث المواقع والموارد والخصوبة والاتساع، فهو كذلك، أو فوق ذلك يحتاج لإنسان يخرج ممكنات هذا المكان من القوة إلى الفعل.

ثم نظرت إليّ بنفس نظرة الفخر والاعتزاز بذاتها قائلة: حقًا إنني أصغر دولة في العالم من حيث العمر أو العمق التاريخي، ولكنني أكبر دولة من حيث المساحة، باستثناء دولة أو اثنين أضعهما في حسباني، الأولى هي روسيا التي كانت تصل مساحتها إلى ضعف مساحتي، حين كانت هي الاتحاد السوفيتي، وبعد أن استقلت عنها الجمهوريات الأخرى صرت لا أعرف الآن مساحتها حالية، وسوف أسأل بعض أبنائي من خبراء البنتاجون أو السي آي إيه «CIA»، و الثانية هي الصين التي تزيد مساحتها بأكثر من نصف مليون كيلو متر مربع. كما أن مساحتي أقل بقليل من كل مساحة أوروبا الغربية، مهد الحضارة

الغربية، ولكن مساحتي تزيد على مساحة قارة أستراليا بأكملها، كما أنني أتفوق على البرازيل التي هي أكبر دول أمريكا الجنوبية مساحة. ومن ناحية أخرى، فإن مساحتي الشاسعة هذه يحتضنها من الشرق والغرب محيطان هما الأطلنطي والباسفيكي، وذلك أمر في غاية الأهمية ولا أكاد أتحدث عنه، فقد كفل لي محيطان الحماية الطبيعية منذ نشأتي حتي اليوم، إذ لا يستطيع أحد - بفضلهما أن يشكل تهديدًا أو عدوانًا على أرضي بأي حال من الأحوال.

وهنا تململت أمريكا على نحو فجائي أثار حيرتي، ولكنني لم أقاطع سترسالها، الذي استغرقت هي فيه. وواصلت قائلة: وأنا ذات أجواء متعددة: شمال بارد، وجنوب حار، كما أنني أجمع أنواعًا مختلفة من الظواهر الطبيعية: صحروات قاحلة، تتوزع فيها واحات وجبال ورمال وثروات معدنية لا حصر لها، وديان وأنهار، وخلجان وبراكين.

كما تتمثل المملكة الحيوانية بأكملها عندي، ويوجد على أرضي أكبر أنواع الشجر عمرًا، وتتميز أشجاري ومزروعاتي بكثافة خضرتها واختلاف ألوانها عبر الخريف والشتاء والربيع والصيف، من الأخضر إلى الأصفر بدرجاته والأحمر بدرجاته إلى الأخضر مرة أخرى. ويفوح من أرضي عبير بالغ الطيب، ناهيك عن الجمال الذي يحيط به، وبأنهاري الغزيرة وهي تتدفق لتروي الوديان. أما الجمال الذي تشكله سلاسل جبالي، فهو من الروعة التي لا يضاهيها جمال، لأن... «بكارة» تسم كل مظاهر طبيعتي. ولعل جمالي كان من العناصر المهمة التي بهرت كولمبس، وجعلته يراني نعمة شكر الرب عليها، وأصر أن أكون جزءًا من إسبانيا، بالرغم من أنه ظن أنني الجانب الآخر من الهند.

قلت بأسى: لكن كولمبس، هو ومن تلاه من المستكشفين، ألغوا هذا الأصل وأزاحوه تمامًا، وحل الآخر الأوروبي محله!.

وإذا بمسحة من الغضب تجتاحها، وترد على بصوت يملؤه الثقة والقوة: الأصل لا يتم إزاحته أو إلغاؤه إذا كان في تكوينه ثغرات تجعله هشًا وضعيفاً لا يستطيع البقاء، والحضارة الأصلية، كما يقول المعتدلون من الباحثين، كانت حضارة عاكفة على الذات، تهتم بالشعائرية الشكلية أكثر من اهتمامها بالتواصل الحي، وأضعفتها التناحرات الداخلية والانقسامات في الذات الجماعية، مما أدى إلى وجود ثغرات سمحت بالولوج الإسباني والأوروبي إلى داخلها.

قلت: وهل صار على الأوربيين واجب القضاء على كل «أصل» ثقافي، لأنه يمر ببعض الصعوبات؟ قالت، وقد بدا على وجهها نوع من التحدي، وكأنها سترد عليّ بما لا قِبل لي به: سأفشي لك سرًا، إياك أن تخبري به قومك: لقد كان من الممكن للسكان الأصليين هنا أن يواجهوا التحديات التي واجهتهم، كما يحدث كثيرًا كلما واجه شعب ما تحديًا من التحديات، ولكن خطأهم الأساسي الذي حسم الأمور كلها لغير صالحهم، أنهم تبنوا مقولات الغزاة، وكانوا يصدقونهم دائمًا - أو غالبًا - فيما يقولون لهم، وفيما يعطونهم من وعود وعهود ومواثيق، لم تكن تنفذ أبدًا، ولم تكن يقصد بها أبدًا ما تعلنه وتدعيه. ولكن ليس هذا هو كل السر الذي أريد أن أقوله لك. إن هذا هو مقدمته أو نتيجته! إن السر، كل السر، يا عزيزتي -وهذا ما ذهب إليه تودوروف- هو أن السكان الأصليين كانوا قد توقفوا عن صنع معاني جديدة في حياتهم، وعجزوا عن أن يصنعوا أيضًا معانيَ جديدة لمواجهة الغزاة،

معاني ذاتية خاصة بهم تتفاعل مع هذا التحدي الطارئ ومع معانية ومع وعوده وعهوده!.

وكل شعب يعجز عن إبداع «معانيه» الجديدة يلقى نفس المصير. هل عرفت الحقيقة الآن؟ حاولي ألا تقوليها لأحد! أو قوليها فهذا لا يهمني في الحقيقة، فحالكم لن يتغير مهما عرفتم؟.

سكت طويلاً أفكر في الحقيقة المذهلة التي قالتها، والتي تتكرر الآن حقًا هذه الأيام، وتكررت قبل هذه الأيام، وربما ستتكرر أيضًا في قابل الأيام في بلادنا في مختلف أرجاء العالم، تحت دعاوي السلام والعولمة وحقوق الإنسان... إلخ. كنت كأنني لست معها. وتركتها وأنا ذاهلة تسترسل في كلامها قائلة: كما أن المكتشفين بعد أن استقروا في أماكن من الأرض الجديدة اصطدموا، حين أرادوا زراعة الأرض الشاسعة الخصبة، بتفكير السكان الأصليين الذي يذهب إلى أنه لا ينبغي أن تزرع إلا ما تحتاج إليه ولا تجني إلا ما تحتاج إليه»! وكان يعني في رأي القادمين الجدد الوقوف دون القدرة على استخراج كل ممكنات الواقع، للاستثمار كل ما يمتلكون من الأفكار وإعمالها في أرض هذا الواقع الرحب. لأفكار كما علمتنا الفلسفة البراجماتية -فيما بعد- هي مجرد خطة عمل... تحويل الممكنات إلى وقائع، بمقتضى غايات مستهدفة، ووفق وسائل مختارة. والسكان الأصليون كانوا بدائيين لا يدركون كل ذلك. فضحكت قائلة: أو متوحشين، كما وصفهم كولمبس عندما رآهم «عرايا».

ولكنها لم ترد على تعليقي الساخر، واستطردت قائلة: إن المكتشفين، وكل من جاءوا مع الهجرات الأولى، كانو مؤمنين بالله

متبعين إنجيلهم، حيث آمنوا بقول الله: ﴿ من ثمارهم تعرفونهم﴾ By their fruit you shall know them. «فالعمل» ونتائجه المثمرة هو جوهر الإنسان المؤمن.

وهنا تذكرت قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، وكيف أن الله شرف الإنسان بسجود الملائكة له لمعرفته الأسماء كلها، فلماذا -هكذا تحدثت إلى نفسي- يستحوذ على فكر المسلمين اليوم سوء فهم للآيات التي تتحدث عن الحياة الدنيا والآخرة، التي توصف بأنها خير وأبقى؟ إن المقارنة التي يعقدها القرآن بين الدنيا والآخرة لا تؤدي إلى نسيان الدنيا من أجل الآخرة ولا نسيان الآخرة من أجل الدنيا: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، فهي مقارنة يقصد منها التوازن الذي يحقق الثمار المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية معًا؟

ولقد أدى ترك الدنيا من أجل الآخرة ليس إلى جعل الأولوية للشعائر وللعبادات على المعاملات فحسب، بل أدى كذلك إلى الأداء الشكلي للشعائر والعبادات نفسها، وبذلك تراجعت قيمة العمل في كل مجالات النشاط الديني والدنيوي، الأمر الذي أدى إلى فصام بين المسلم وواقعه، ارتد به إلى حيرة دائمة، ويقين ينوشه الضعف والتردد والشك، وانعدام الفاعلية في عالم الواقع الواسع.

تفكيك أمريكا

مابعد أحداث 11 سبتمبر

رضا هلال (2003)

رضا هلال صحفي مصري سافر إلى أمريكا في سنه 1998 ليعمل كمراسل لصحيفة يومية. نشرت الطبعة الأولي من كتابه سنة 1998 والثانية 2001 والثالثة 2003 مع مقدمة عن أحداث 11 سبتمبر المريعة. اهدى هذه الطبعة الأخيرة إلى مدينة نيويورك معبراً عن اعجابه بها وفجيعته لتعرضها لهجمات 11 سبتمبر.

عندما صدرت الطبعة الأولى من كتاب «تفكيك أمريكا» عام 1998، كان القصد تقديم صورة معرفية لأمريكا، أي شخصية أمريكا ومجتمعها وسياستها وثقافتها.

وعنينا بـ «تفكيك أمريكا»، محاولة تفكيك عناصر التجربة الأمريكية الفردية والجماعية، ليس فقط من خلال النصوص، وإنما أيضاً من خلال ممارسة الحرية والحياة في السياسة والدين والجنس.

كما تضمنت محاولة «تفكيك أمريكا»، طرح السؤال عن احتمال تفكيك أمريكا كما حدث للاتحاد السوفيتي السابق. وتوصلنا إلى أن التهديد الذي ستواجهه أمريكا سيكون تهديداً داخلياً على مستوى تدهور القيم الأمريكية والمؤسسات الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

وعندما صدرت الطبعة الثانية من الكتاب عام 2001، قبيل هجمات الطائرات الانتحارية على نيويورك وواشنطن في 11 سبتمبر، أردت أن تصدر دون تغيير حرف واحد، مدفوعاً بالإقبال والاستحسان

اللذين حظي بهما الكتاب، وبالاعتقاد بأن الكتاب -أي كتاب- هو شهادة مؤرخة بتاريخ محدد وأن أحداث التاريخ فقط هي التي تحدد مدى صدق وصلاحية تلك الشهادة، وأن التعديل والإضافة هما تغيير في الشهادة -النص وفي موقف الشاهد- الكاتب.

ونفذت الطبعة الثانية للكتاب خلال ساعات. وربما كان السبب في ذلك أن القراء الكرام حاولوا فهم أحداث 11 سبتمبر 2001 في ضوء ما تضمنه الكتاب. وتابعت مراجعات للكتاب -في الصحف- بعد أحداث 11 سبتمبر. ومن تلك المراجعات ما أرجع ما حدث إلى جماعات العنف والميليشيات الأمريكية. ومنها -أيضا- ما قال بهشاشة القوة الأمريكية. ومنها -أخيراً- ما استنتج أن «تفكيك أمريكا» قد بدأ.

وقد كان كل ذلك، دافعاً لي لأن أتعرض لأحداث 11 سبتمبر في مقدمة ما يصوره كتاب «تفكيك أمريكا» هو شخصية أمريكا، باعتبارها «بوتقة انصهار» بين أعراق وثقافات وأديان متعددة من خلال أفكار وقيم مثل الحرية والفردية والبراجماتية ومؤسسات سياسية واجتماعية اجتذابت الناس من مختلف الأجناس للعيش في ظل «الحلم الأمريكي».

ويتطرق الكتاب إلى تحول أمريكا من «أرض ميعاد» اجتذبت الحالمين بالحرية والثروة إلى «دولة صليبية» تسعى إلى أمركة العالم سواء بالثقافة أو بالقوة العسكرية، بما أدى إلى «كراهية أمريكا» في بعض أصقاع العالم. ويرتكز الكتاب على تفكيك صورة الحلم الأمريكي الذي تهدده تعارضات المثالية والواقعية، الثروة والفقر، الأبيض والملون، المال والسلطة، المساواة وسيطرة جماعات المصالح.

وفي «تفكيك أمريكا» يشغل الدين أهمية نسبية من حيث رصد التناقض الأمريكي بين مجتمع متدين ودولة علمانية، إلى متابعة تهويد المسيحية الأمريكية، إلى صعود اليمين المسيحي ووصول عناصره إلى الحكم.

ويكتمل «تفكيك أمريكا» بتفكيك ثقافة الجمهور لتحديد صورة الذات والآخرة، وصولاً إلى صورة «العربي القبيح» و «الإسلام العدو».

وينتهي الكتاب إلى أن أمريكا مهددة من الداخل. مهددة بضعف آلية «بوتقة الانصهار». ومهددة بتدهور قيم «الحلم الأمريكي». ومهددة بانحطاط المجتمع الأمريكي (العنف - الجريمة - الانحلال...). ومهددة بتراخي المؤسسات الأمريكية.

وجاءت هجمات الطائرات الانتحارية على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاجون (وزارة الدفاع) في واشنطن، لتثبت أن التهديد الأمريكي داخلي وأن العدو في الداخل.

وإذا أستشهدنا بالمؤرخ الشهير «بول كيندي» فإن أمريكا القوة العالمية العظمى الأولى، لم تفشل فقط في صياغة استراتيجية كونية - قبل أحداث 11 سبتمبر- بل فشلت في تطوير استراتيجية لحماية الداخل الأمريكي من «الإرهاب».

لقد سبق تفجيرات واشنطن ونيويورك بأسبوع توجه ثلاث فرق جوية أمريكية تقلها البوارج البحرية تمخر عباب البحر من الساحل الشرقي الأمريكي إلى مضيق تايوان وممرات الخليج، كدليل على قوة أمريكا وقدرتها على الوصول إلى أي مكان في العالم على بعد آلاف الأميال.

ولكن تلك الفرق الجوية عادت مسرعة إلى بلادها مباشرة عقب هجمات الطائرات الانتحارية، لحراسة البيت الأبيض والبنتاجون أو إنقاذ من بقوا على قيد الحياة في مركز التجارة العالم. وهي مهمات لم تعد لها تلك البوارج والطائرات والقوات التي على متنها.

وقد كان «بول كيندي» محقاً عندما وصف أمريكا بأنها «امبراطورية بكعب أخيل». وكعب أخيل الذي ضُربت فيه أمريكا. هو الداخل الأمريكي. لقد كشف حادث هجوم الطائرات الانتحارية عن تراخي المؤسسات الأمريكية وفي مقدمتها المؤسسات المخابراتية والأمنية (وكالة الأمن القومي الأمريكي - وكالة المخابرات المركزية- مكتب المباحث الفيدرالية).

وفي الحق أن نشوة النصر في الحرب الباردة - بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط حائط برلين - قد أسكرت مؤسسات الحكم الأمريكية.

ولوقت ما، زينت سكرة النصر لمؤسسات الحلم الأمريكية الابتعاد عن «أشرار العالم» وتجنب الاهتمام بمصالح «الحلفاء» اعتماداً على أن أمريكا لديها القوة التي تؤمن مصالحها منفردة.

ولوقت آخر، رأت المؤسسة الأمريكية الحاكمة، مع مجيء إدارة بوش الابن، أن العدو المحتمل هو الصين وروسيا، وتعامت عن العدو الحقيقي.

وكانت سكرة النصر وراء رضا الأمريكيين عن أنفسهم. فأظهرت الاستطلاعات أن الجمهور الأمريكي بات يعطي اهتماماً ضعيفاً ببقية العالم حتى إن شبكات التليفزيون الأمريكية قلصت مكاتبها الخارجية

وبثها للأخبار الخارجية بنسبة الثلثين بين عامي 1989 و 2000.

وقد كان رضا الأمريكيين عن أنفسهم وابتعادهم عن الانخراط في شؤون العالم وراء تجاهلهم التحذيرات بأن الإرهاب العالمي قد يضرب السواحل الأمريكية.

ففي أول يونيو 1997 كتب «جيمس وولس» (مدير المخابرات المركزية الأسبق) و«جوزيف ناي» مساعد وزير الدفاع الأسبق، مقالاً في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» تحت عنوان «رؤية الإرهاب» جاء فيه: إن الأولوية العظمى لسياسة الأمن القومي الأمريكي يجب أن تعطى للإرهاب الكارثي. وحذر الكاتبان في المقال من عقلية «بيرل هاربر» التي تقوم على الدفاع بعد وقوع الهجوم.

وفي أوائل 1999، كانت لجنة الأمن القومي في مجلس الشيوخ برئاسة السيناتور «جاري هارت» والسيناتور «رودمان»، قد أصدرت تقريرها بعنوان: «العالم الجديد المقبل: الأمن القومي الأمريكي في القرن الحادي والعشرين». وجاء فيه: «نحذر من أن التفوق العسكري الأمريكي قد لا يحمينا من هجمات عدائية على أرضنا... إن الأمريكيين قد يموتون على الأرض الأمريكية... وربما بأعداد هائلة...».

أما تراخي المؤسسات الأمنية فقد وصفه الكاتب المخابراتي الشهير «جيمس بامفورد» بأنه: النوم القاتل - الفشل المخابراتي الأمريكي الأعظم.

وعندما نقول إن التهديد الأمريكي هو تهديد الداخل، فإن الأمر لا يقتصر على أخطاء مؤسسات الحكم والمؤسسات الأمنية.

فتهديد الداخل يتمثل -أيضا- في صعود اليمين المحافظ الجديد واليمين المسيحي إلى سدة الحكم. فاليمين المحافظ يتبنى رؤية انفرادية احترابية تجاه العالم. رؤية انفرادية بمعنى أن تحقق أمريكا -منفردة- مصالحها بما لديها من قوة غير مسبوقة وغير مقارنة بغض النظر عن مصالح الآخرين وبينهم الحلفاء. وإذا ما احتاج الأمر إلى جهد دولي فإن ذلك ينبغي أن يكون لمصلحة أمريكا ووراء أمريكا. فوزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يقول دائما: إن المهمة هي التي تحدد التحالف ولا يحدد التحالف المهمة. ويعتقد ديك تشيني نائب الرئيس أن المنظمات الدولية وقواعد القانون الدولي ينبغي التعامل معها من منطلق مصلحي، فعندما تكون مفيدة للولايات المتحدة يعمل بها وعندما لا تكون يجب تجاوزها. وذلك ما حدث في تعامل إدارة بوش مع معاهدة حظر الأسلحة البالستية والمحكمة الجنائية الدولية وبروتوكول الأسلحة البيولوجية وبروتوكول كيوتو.

أما اليمين المسيحي فإنه يتبنى رؤية صليبية للعالم (تقسيمه إلى أخيار وأشرار) وتحركه بشارة تهيئة العالم للمجئ الثاني للمسيح في «أورشليم» ونهاية العالم. وذلك ما يفسر العداء للإسلام والمسلمين والانحياز للصهيونية. غير أن سياسات اليمين المحافظ واليمين المسيحي تثير الرفض والعداء تجاه أمريكا.

بيد أن تهديد الداخل قد أصبح محط الاهتمام بعد أحداث سبتمبر، حتى أن مركز أبحاث يميني شهير مثل مؤسسة القرن «Century Foundation»، قد عنون تقريره عن أمريكا بعد عام من الأحداث بـ «العدو في الداخل» موصيا بتقوية الجهد المخابراتي وصيانة الحريات المدنية وتطبيق القانون.

لقد أضرت هجمات 11 سبتمبر بالداخل الأمريكي -وفي مقدمة ما فالإجراءات التي اتخذتها السلطات الأمريكية بذريعة محاربة الارهاب بحق الآلاف من المسلمين وذوي الأصول الشرق أوسطية والآسيوية استعادت سجل التعامل مع اليابانيين والألمان خلال الحرب العالمية الثانية وأضرت بفكرة «بوتقة الانصهار» لصالح توجه الانفصالية العرقية والثقافية وإذكاء الكراهية في قلوب ملايين المسلمين من السود والعرب والأسيويين في الداخل.

ومن جانب ثان، فإن الإجراءات التي طبقتها الحكومة الأمريكية بعد الهجمات الإرهابية، أضرت بحالة الحقوق المدنية، والتفت حول الدستور والقانون. بل وانتهكت مبدأ فصل السلطات.

فقد سنت السلطات «قانون الوطنية US Patriot Act» ليخول للسلطات الأمنية حرية التفتيش والاحتجاز والتحقيق والتنصت على الأفراد بذريعة محاربة الإرهاب. وقامت السلطات بإجراءات معادية للحريات مثل الاستدعاءات السرية والاعتقالات السرية والمحاكمات السرية. وشكلت إدارة بوش «المحاكم العسكرية» لمحاكمة «الأعداء المحاربين» الذين حرموا من أية حقوق قضائية. ولم يقتصر ذلك على الأجانب بل شمل مواطنين أمريكيين بأوامر من الرئيس الذي أصبح الخصم والحكم بما يعد تحايلاً على مبدأ فصل السلطات وتقويضا للثقة في النظام القضائي المدني.

لقد كان الهجوم الإرهابي على أمريكا في 11 سبتمبر، اختباراً حاسماً لأفكار وقيم قام عليها المشروع الأمريكي.

- فكرة بوتقة الانصهار.

- وفكرة التسامح الديني.
- وقيم الحريات المدنية.
- ومبدأ فصل السلطات.
- وفكرة المصير المبين، بمعنى أن الرب قدر لأمريكا أن تقود العالم إلى الحرية والتقدم.

تلك هي الأفكار والقيم التي صنعت أمريكا ونصبتها على قمة العالم، وإذا ما تقوضت فلا محالة من «تفكيك أمريكا». وكما قال «صمويل هانتنجتون». فإنه إذا تفككت العقيدة الأمريكية وسادت الانفصالية العرقية والثقافية، وتفكك الإجماع على الحرية والديمقراطية، فستنضم أمريكا إلى الاتحاد السوفيتي السابق، على تل نفايات التاريخ.

شمس الأصيل في أمريكا

محمد الجوداي (2003)

محمد الجوداي طبيب مصري سافر إلى أمريكا بين عامي 1983 و1991. كان الغرض من الرحلة الأولى في سنه 1983 هوللبحث العلمي وللمشاركة في مؤتمر طبي عن الشيخوخة وأمراضها. في هذه الطبعة الثالثة من كتابه شمس الأصيل في أمريكا يصف الكاتب حياته في كليفلاند (في ولاية أوهايو) و أبحاثه الطبية عن أمراض القلب وكذلك صداقاته العديدة مع من صادفهم من أمريكيين في كليفلاند.

هل تغيرت أمريكا

هل تغيرت أمريكا... هل غيرت أمريكا نظرتها إلى العالم؟

كنت أتحدث في عشاء (بالنسبة لي إفطار رمضاني) في نادي «كليفيلاند» للتزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) في اليوم التالي لوفاة الأديب البريطاني «جراهام جرين»، ولا أعرف ما الذي قادني إلى أن أقول: إنه من الطريف أن «جراهام جرين» لم يحصل في الخمسينيات على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية بسبب تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعية، وذلك تحت سيطرة سياسة المكارثية التي تعتزم أمريكا التخلي عنها نهائياً هذا العام... ربما... أردفت: إن حمى عداوة الشيوعية كانت تنتاب أمريكا في هذه الفترة.

أما اليوم فقد تفضلت إحدى السيدات الحاضرات فروت لي كيف يأتي الروس اليوم إلى أمريكا في جماعات، وأنها شخصياً تُفاجأ في المدرسة التي تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضهم، وقبلتهم المدرسة مع بعضهم أيضاً، ومهدت لهم دروساً تعليمية تهيئ لهم الانخراط في التعليم الأمريكي بأقصى سرعة... وسرعان ما ينجح هؤلاء في الانخراط في الحياة الأمريكية... هؤلاء الذين جاءوا وكأنهم لا يعرفون حرفاً من الإنجليزية على حد تعبير محدثتنا!!.

إذاً أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها في ما هي محتاجة إليه... والحاجة تتغير مع الزمن، وتتغير أمريكا بالتالي في توظيفها للمتاح فتبدو وكأنها تتغير!!.

تسألني مزيداً من الإيضاح فدعني أتحدث معك عن قطاع الطب.

تصور لو أن أي قسم من الأقسام في أي مستشفى من المستشفيات الأمريكية قد استبعد من أطباء هذا القسم أولئك الأوروبيين والشرقيين والعرب واللاتينيين (القادمين من أمريكا الجنوبية) أي كل أولئك الذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطوا في الطب الأمريكي، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل في هذا المستشفى. ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه... هل سيتوقف القسم. لا. لن يتوقف في أمريكا عمل أبداً، ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلد الأمريكيين وحدهم وإنما هي بلد كل العاملين المجدين المتميزين، هكذا فهم الأمريكيون معنى أمريكا منذ بدأوا

يقيمون إمبراطوريتهم... وهكذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعد من دون أن تتحدث الامبراطورية... إنما هم يشبون فيجدون بلدهم يتقبل مَنْ يضيف إليه فيجدون أنفسهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل مَنْ يؤملون فيه أن يضيف إليهم.

وهكذا يمكن أن تتضاءل العنصرية القومية في أمريكا حتى تصل في رأي البعض إلى العدم، وفي رأي البعض الآخر إلى العدم المعدوم! ولكن بعض الساسة الأمريكيين يأتون في بعض اللحظات ليؤججوا مشاعر عنصرية تحت شعارات أخرى براقة فاذا هم ينتقصون من روح أمريكا ومزاياها.

ولكن أمريكا في الوقت ذاته ليست بلد كل المهاجرين ولا كل الطموحين أو كل المشردين أو الذين يجيئون من شُذاذ الآفاق. أمريكا بلد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هم.

هل من حقي أن أستطرد لأحكي لك يا سيدي أن بلاداً عربية مرت في العقدين الأخيرين بالفرصة الكبرى التي تتيح لها أن تفيد من التجربة الإيجابية التي خاضتها أمريكا حينَ طّعمت شعبها على النحو الذي طعمته به. والتي لازالت تطعمه به؟.

نعم كان في وسع بلاد العرب الغنية وهي تستجلب التكنولوجيا العظيمة التي استوردتها أن تتخلى بعض الشيء عن قومياتها المحدودة لتعطي الجنسية الكاملة لأولئك الخبراء والفنيين الذين يديرون حياتها التكنوقراطية بل وأن تغريهم على حمل هذه الجنسية بكل الوسائل التي تملكها، ساعتها من حق أحد أن يفكر فيما بينه وبين

نفسه في أنه موجود هناك في تلك البلاد إلى حين، وإنما كانت هذه المجتمعات قادرة على تذويب عدد كبير من الكفاءات الممتازة في كيان هذه المجتمعات، على نحو ما فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطانيين والألمان والفرنسيين والعرب... الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين.

كان في وسع هذه الدول العربية أن تحتفظ وللأبد بأربعة آلاف طبيب مصري من خيرة الأطباء المصريين يصبحون في خلال عشرين أو ثلاثين عاماً مرتبطين بهذه الدول من جميع النواحي بارتباطات اللسان والمستقبل والماضي والأسرة والاستثمار والولاء، كما حدث للأوروبيين في أمريكا.

وأنا أتلفت حولي فأجد الطبيب الفلبيني أو الإيراني أمريكياً - مواطناً أمريكياً تماماً- بينما أسرته بأكملها في الفلبين أو إيران.

أسأل إحدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أهي بولندية؟... فتقول: بل أبواها جاءا من «بولندا»... وهذه الزميلة في «سالزيورج» ولكنها أمريكية؛ فحين ولدت هناك مات أبواها في طريقهما إلى الولايات المتحدة. ومديرة التأمين الصحي يوغوسلافية الأب والأم، ومديرة النشر ألمانية الزوج والأب، وسكرتيرة قسم الأسنان إيرلندية الأب ألمانية الأم، وطبيب الأسنان إيطالي الأبوين، وسكرتيرة قسم الأوعية الدموية إيطالية الأب أيرلندية الأم، وزميلتنا الجديدة في الرعاية المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولي الآن من الذين لم يُولدوا في أمريكا ومع ذلك فإنهم أمريكان... ولكننا في بعض البلاد العربية وعلى رأسها

مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا مَنْ ولد من أبوين مصريين، وبعد حين سيتطور القانون من تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح: ومن جدين مصريين، ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع!!!، بل ربما وصل الوضع إلى هذا الحال!.

ربما يكون الموقف مختلفاً في مصر، وهي التي استنت للجنسية قوانين في منتهى العبقرية والليبرالية، ولكني عبرت عن أوطان عربية أخرى باسم مصر، لأني أعرف حدودي في النقد، ولأني أحب لبلادي أن تبقى على نحو ما عرفها العالم عبقرية وليبرالية.

2 - وأعود للسؤال الذي بدأتُ به هذا الفصل: هل تغيرت أمريكا حيت بدأت ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطاني «جراهام جرين» لأنه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعي إلا بضعة أسابيع عابرة!!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء والخبث ويقول: بل روسيا هي التي تغيرت، حين تركت الشيوعية، وحين تركتها رحبت بها أمريكا... ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير. إن أمريكا بلد مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء، أو علاقات مودة أو تشفّ!!.

أمريكا تقدر أنها في حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط، وإلا فإنها ستعاني تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم، حتى وإن كانت محدودة الأثر... إذاً فلا مانع من أن يغض البوليس الطَرْف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية ليقوموا بمثل هذه الأعمال البسيطة. حتى إذا ما وصلت أمريكا إلى المرحلة التي تحس فيها أن البطالة تهدد

اقتصادها، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركهما وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية.

نفس الأمر في الطب - ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هو قمة المهن، وأنه سواء في أمريكا أوفي مصر وبنغلادش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة «الكريمة» في شباب الوطن، نعم. ولكن المسألة في الطب أعمق من هذا - إن الطب يؤدي وظيفة إنسانية مُلحة أكثر مما يتحكم في عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها... ولهذا فإن طموح أي مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظائف المؤداة فيه على أعلى مستوى، لن يمانع في أن يعطي الفرصة في أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها... فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على يؤدوا الأداء الأمثل في سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية، فلابد من أن تُشغل الثلاثين في المائة من المواقع الأخرى بالكفاءات التي ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة، وإذا كان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين في المائة فلا بد أن يتاح للخمسين في المائة الأخرى ممَنْ هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمريكيٍ يتمنى أن يتولى بنفسه مائة في المائة من المواقع بل ويعمل جاهداً على تحقيق هذا الهدف، بل وتتيح له الإمكانات الموجودة أن يفعل هذا، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقة الأمر شيء آخر.

سأضرب لك مثلاً بعمل للقثطرة القلبية يضم عشرين طبيباً أمريكياً قادرين تماماً على أداء مختلف أنواع القثاطر بنجاح والتزام تامين، ولكن هناك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمركين

حديثاً يملكون قدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفوق على معمل آخر ليس فيه هؤلاء الخمسة، ربما تتوفر لهم قدرة أكثر على الابتكار، أو التطوير، أو على الدراسات، أو على توفير الوقت، أو توفير الإجراءات والخطوات أياً ما كانت، بل ربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم القدرة على توفير العملاء!! أي تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل في الأوساط المحلية داخل أمريكا، أو الأوساط الدولية خارجها، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً في البقاء في هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون يتنظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية، سواء في معامل أخرى أو مناطق أخرى أو في مواقع رئاسات، هذه هي بعض العوامل التي تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد في مواقع ممتازة، ربما لا يحلم بها الأمريكي حفيد الأمريكيين، ولكن الأمريكي الذي يتخذ القرار بفعل هذا كما يفعل مع أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين!!.

وهذه هي روح أمريكا، وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا في ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه... إلا عن وجود الذي سبق العدم.

ربما تستغرب مني يا سيدي هذه القسوة في التعبير، وتظنها شططاً للقلم، ولكنها الحقيقة.

تسألني وأين تذهب قوة الدفع يومها؟ ألا تستطيع قوة الدفع أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض في خدمة تقدم أمريكا؟... أقول لك: لا... لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن... لأن أمريكا في تقدمها تطير وتحلق بعيداً.

سألتني كيف يحدث ذلك؟ أقول لك: هل رأيت الناس الذين يجيدون السباحة... للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعُهم يغرق القارب... تماماً الوضع الحالي في أمريكا، إذا أحس ناجوها أن الكيان الأمريكي افتقد روح التميز وبات يخلد إلى الماضي بلا عمل، ساعتئذ سرعان ما سيتدافع الناجون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لا تتصور أنني في تفكيري هذا شبيه بأديب محلق، إن المجتمع الأمريكي نفسه يعرف معنى ما أقول، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات... الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا «أمريكا» من جديد!!.

3 - شاهدت في التلفزيون الأمريكي لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالي عن... بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية، سليمة في الشكل طبعاً، لها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين. تسألني هل كانت الحلقات مُوجهة؟ أقول... ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان. أياً ما كان الأمر وانتصر... أن لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق.

...أن الدفاع عن الأمريكيين كان ممتازاً، وقد استطاع محاميهم أن يحرج الشركة اليابانية مرة تلو أخرى، ولكن الحقيقة التي قدمها العمل الفني كانت.... المفصولين يبتزون الشركة اليابانية.

أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفني على شاشة التليفزيون. ولا أعلم الهدف الذي كان وراء هذا المسلسل، ولا أعلم مَنْ الذي أنتج العمل. ولكني أشهد لك، شهادة لوجه الله، أن كمية الصدق الفني في العمل كانت خير ما في العمل كله...

ربما ترك العمل الفني في نفسك أنه ضد الأمريكيين... ولكن الحقيقة التي لابد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفني كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم، لا أقول من النوم، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التي كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها.

وأعود لأتحسر على مسلسلات التليفزيون العربي وأقول: «هكذا ينبغي أن يكون الفن، أو على الأقل... هكذا ينبغي أن يكون بعض الفن! لكي يبقى بعض آخر للإمتاع، وبعض آخر للمؤانسة، وبعض آخر للفن نفسه»!.

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى، الذي سوف أقوله:

«إن أمريكا ليست لأحد»

العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الاستئناف في كاليفورنيا واسمه «رينوسو» «Renoso» وهو أحد الذين شاركوا في وضع القواعد الحاكمة لسياسة الهجرة إلى أمريكا، وهو يتحدث فيها عن وحدة

الشعب الأمريكي فيقول:

«ما كان الأمريكيون اليوم... وما كانوا في أي يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً... إن أمريكا وحدة سياسية فحسب، وليس وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية».

تحب تكره أمريكا ؟

يوسف معاطي (2003)

يوسف معاطي كاتب مصري ساخر نشر عدة مؤلفات تعالج بروح فكاهية ساخرة الأوضاع الاأجتماعية والسياسة في مجتمعه المصري. نشر كتابه تحب تكره أمريكا؟ ترد على كتاب نشر بعد أحداث 11 سبتمبر تحت عنوان Why Do People Hate America? لكاتبين من بريطانيا. أهدى يوسف معاطي كتابه إلى «كريستوفر كولومبس. يعالج الكتاب أحداث 11 سبتمبر، الأفلام الأمريكية، الرئيس كلينتون، وعلاقاته الغرامية، وينتهي بفصل تحت هذا العنوان: «لماذا أحب أمريكا؟».

من هو الأمريكي؟

لقطة عجيبة لفتت نظري بشدة وانا أشاهد الرئيس الأمريكي «جورج دبليو بوش» وهو يخطب في الجيش الأمريكي قبل غزو العراق... كان واقفاً على المنصة يتكلم بحماس وإحساس كأنه واعظ في كنيسة وخلفه كان الجنود يمثلون خلفية رائعة منظمة ومرتبة بشكل ساحر... ولكن شيئا ما جعلني اندهش، كل الجنسيات والألوان كانت في الخلفية الأبيض والأسمر والأصفر... والكوري والياباني وآخرين... أين الأمريكي؟ لابد، إنه كل هؤلاء... كان الرئيس يتكلم بعمق وصدق حقيقيين عن خوفه من أسلحة الدمار الشامل التي في العراق... كان

يتكلم عن عالم يغمره الحب والسلام... إن هذا التناقض الأمريكي عجيب حقًا... فهو يتكلم عن الحب وهو يشهر مسدسه ويوجه صواريخه نحوك... إنه يطلق النار على صدري وهو يسألني... تكرهني؟... أنت تكرهني... لماذا تكرهني؟! قل... تكلم!! ثم يصرخ في العالم كله... من ليس معنا هو ضدنا؟! لا أريد أن أسمع كلمة No أبداً... فقط أسمع Yes... حاضر... مفهوم... ثم يعود بعد ذلك ليتكلم عن الحرية والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية... وحين قال بعض المسؤولين للإدارة الأمريكية... لقد حذرناكم من الإرهاب ولم تستمعوا لنا... ولقد بلغناكم قبل 11 سبتمبر... ولم يصغ أحد لنا رد -«توماس فريدمان» الصحفي الأمريكي المشهور- نحن لا نريد مصر المخبر وإنما نريد مصر المنارة- أين رموزكم الثقافية والفنية... أين طه حسين والعقاد وأم كلثوم وعبد الحليم... أنت لم يعد لديك شيء... وهو رد لا يخلو من الحقيقة ولا يخلو أيضاً من التناقض الواضح في الخطاب الأمريكي... فنحن أيضًا لا نريد أمريكا العسكري ولا أمريكا الإرهابي- وإنما نريد أمريكا المنارة الفنية... نريد أمريكا هوليود أمريكا ثورو وأيمرسون ويتمان وأونيل.

إن «إيمرسون» مثلاً... أحد المفكرين الذي صنعوا تاريخ أمريكا ورسموا الشخصية الأمريكية... قال: أنا لا أبحث عن ما هو عظيم أو بعيد أو رومانسي ولا أبحث عما يدور في إيطاليا أو في بلاد العرب ولا عن الفن اليوناني أو عن الموسيقيين والمغنيين في العصور الوسطى - فأنا أجمع الشائع وأستكشفه وأستقر عند أقدام المألوف محاولا أن أكتشف من هذا المألوف شيئا آخر... غير مألوف... ثم عاد ليكرر. إن

عصرنا عصر التأمل الداخلي لأنفسنا... كان يبدو كما لو كان يكتشف عالما من الخيال، لأول مرة كان عقله مليئا بالأفكار والتخيلات كما لو كان أرضا للأساطير... كان مثل إله شاب يقوم بتجارب على الخليقة... كان يلطخ عمله ثم يبدأ في العمل من جديد معتقداً أنه في كل مرة يصنع الأفضل.

إني لأتأمل أفكار ايمرسون في محاولته الشاقة والبديعة للبحث عن ملامح للشخصية الأمريكية بكل هذا القدر من البراءة والصدق ثم أعود واتخيل ماذا كان سيصبح موقفه لو عاش لتلك اللحظة التي يتساءل فيها الأمريكي ذلك السؤال... لماذا يكرهوننا... وأستطيع أن أخمن كيف كان سيجيب على السؤال.

و«ثورو» الشاعر الأمريكي الذي كان يرى أن من حق أي مواطن يختلف مع حكومته أن ينفصل عنها... وكان قد أعلن انفصاله عن الحكومة الأمريكية لأنها كانت تقر تجارة الرقيق ولم يدفع الضرائب اعتراضا - فدخل السجن وحينما ذهب إليه أيمرسون ليزوره في السجن سأله أيمرسون ماذا تفعل داخل هذا السجن يا ثورو... فسأله ثورو- وماذا تفعل أنت خارجه؟!.

وثورو فنان أمريكي عبقري... قال في مقدمة كتابه (والدن) أنه في أغلب الكتب حذف الـ (أنا) أو ضمير المتحدث فلا يجب أن يتحدث كثيرا عن نفسه... كان ثورو عنيدًا صلب الرأي وتمتلئ رأسه بالأفكار، وكان يتمتع بالقدرة على قلب الموائد في وجه المستمعين أو المتفرجين... فما أحوجنا إلى ثورو الآن في القرن الواحد والعشرين. كان يقول تحت أي ظروف مناخية وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار. كنت دائما

متلهفا على تسخين اللحظة الحاسمة للوقت وربطها بعصاتي... كنت أقف دائما عند ملتقى أبديتين بين الماضي والمستقبل- وأعني بذلك لحظة الحاضر... لأضع أصبع قدمي على الخط.

وهكذا حاول الكتاب الأمريكيين دائما- إنكار الأنا... ولأول مرة في تاريخ الأدب العالمي يحدث خلق لأنا جديدة... الأنا التي تحوي عدة عقول وتجارب عديدة.

ونرى «ويتمان» وهو يتكلم عن الأمريكي الأسطوري في قصيدته الرائعة:

أنا عجوز وصبي... أحمق وحكيم.

ومع كل تجاهلي للآخرين فأنا مهتم بهم.

أنا من أمة من ضمن أمم كثيرة صغيرها وكبيرها واحد متشابه.

الجنوبي سرعان ما يصبح شماليا.

ثم بطريقة فكاهية جميلة يعترف ويتمان بهذا التناقض الأمريكي العجيب:

هل أنا أناقض نفسي؟

حسنا جدًا...

فأنا إذن أناقض نفسي.

ربما لأنني مترامي الأطراف وأحتوي على مساحات كبيرة شاسعة.

ورغم محاولات ويتمان مثلا - أن يتخطى حدود الشخصية الأمريكية كما في قصيدة أغنية عن نفسي- متجاوزًا كل ما يعد محلي إلى ما هو إنساني عام - ومع ذلك فإن مادة فكره- كانت صيغة متكررة

- هي الأمريكي- الأمة (وكانت أفكاره عن الأمم القديمة والحضارات الغابرة هي الشفقة من أجلهم وقال عنهم) كانوا قديمًا أممًا قوية ثم انحسرت عنهم القوة وأصبحوا منهزمين ومنطوين على أنفسهم... ثم تساءل...

هل توقفت الأجناس الأكثر قدمًا عن الحياة؟
هل خضعوا... ووعوا الدرس... وشعروا بالتعب
هناك خلف البحار. نحن قد أدركنا المهمة الخالدة
والمسؤولية والدرس... فنحن الرواد... نحن الرواد.
ثم عاد يوجه كلامه للحضارات المتهالكة:
يا بقايا الأرض الأخرى الممزقة فلتستريحوا
فقد أنجزتم مهمتكم.
وأنت يا أمريكا.
لقد وصلت من أجل تتويج الخطة فكرة وحقيقة
وليس من أجل نفسك قد وصلت
إنني أغني لسيدتي... أمريكا
أغني من أجل هيمنة شاملة وسيادة عظمى.

ويقول ويتمان... في الواقع لا يوجد شعور عام بالشر بل إن الكون يمتلئ بالخير. وهي مقولة تجيب بدقة عن ذلك السؤال الأمريكي الأشهر الذي هو موضوع هذا الكتاب.

و«هنري جيمس» الكاتب الأمريكي يظهر الشخصية الأمريكية كشخصية رحالة متنقل وليس لها جذور حتى عندما يوجد على أرض أمريكية فهي لا تنتمي إلى مكان بعينه فالأمريكيون خليط كبير من

البشر. ولكن العين لا تخطئ ما يجمع بينهم من رباط وكتب يقول عن الأمريكي إن عنده ثقة مفقودة... وحرية لم تستقر في مكان ما هو حالة من حالات البساطة الكسولة - التي تبدو منظمة جدًا لدرجة أنها من ناحية لا تناسب الوعي الاجتماعي البدائي... ومن ناحية أخرى فإنها من التخلف بدرجة لا يمكن معه تطويرها... نتباهى كثيراً ونحاول دائما أن نجد أعذارًا لما نقوم به وكثيرًا ما نلوح بالعلم الأمريكي ولكن لماذا علينا دائما أن نقدم الأعذار؟ إن الإنجليز لا يعتذرون أبدا- أليس كذلك؟! وعليك أن تقبلنا كما نحن، بكل ما نحمله فوق رؤوسنا من نقائص.

وهكذا ونحن نحاول أن نتأمل ملامح الشخصية الأمريكية نجد. أنفسنا أمام حالة نفسية بها قدر كبير من الارتباك.

دعونا نقفز بالأحداث لنجد الرئيس بوش حينما وقعت الكارثة في 11 سبتمبر... يعلن أنها حرب صليبية ويحول المسألة إلى صراع ديني... يمكن أن يشعل العالم بأثره- ثم يعود ويعتذر. وكلينتون يقسم أنه لم يكن على علاقة بمونيكا، ثم يعترف في خجل... ثم يعتذر... فمتى يأتي اليوم الذي يعتذر فيه... الأمريكيون عن هذا السؤال...

لماذا يكرهوننا!!

وحينما كتب «جيمس» كتابه (الأوروبيون)، تجد أن الشخصيات الأمريكية تظهر فيه كنموذج للبراءة والكمال والطهر والرقي - وظهرت هذه الشخصية بالطبع متناقضة مع الشخصيات الأخرى المتشردة

التي نشأت في أوروبا وامتلأت بالخبث والغرور وقد رسخ هذه الفكرة في كتابه (الأمريكي)... والعنوان نفسه يحمل معنى... فنحن لم نسمع عن رواية اسمها الرجل الإنجليري أو رواية اسمها الفرنسي... فخيال الكاتب الأمريكي انشغل دائما بمشكلة النموذج القومي الوطني ويحمل اسم الرجل الجديد أو New Man مغزاه أيضا.

ويقول النيومان لماذا أنا عظيم؟ إنه الشعور بالكبرياء الناتج عن العمل الشريف والفخر بأنك استطعت أن تنتج شيئا ووجدت عند الآخرين الرغبة في شرائه فهذا هو المعيار الواضح لعظمة الأمريكي. إن ذلك الإحساس القوي الذي يجعل الرجل صالحا هو الإحساس بأنه مواطن أمريكي.

وفكرة البيع والشراء المسيطرة على الفكر الأمريكي تؤدي غالبًا إلى إيقاعه في مأزق التناقض الشهير والكيل بمكيالين، حيث يستند موقفه الأخلاقي على اللحظة التي هو فيها بائعًا أو شاريًا... فهو يعترض بشدة أمام العالم ويتحدث عن حقوق الإنسان مثلاً... إذا عرض التليفزيون صورًا للأسرى الأمريكيين في الحرب الأخيرة... بينما هو نفسه الذي يعرض في كل المحطات التليفزيونية والصحف صورًا بشعة لجثتي «عدي وقصي صدام حسين!!».

أمريكانلي

(أمري كان لي)

تأليف صنع الله ابراهيم (2004)

صنع الله إبراهيم روائي مصري مشهور له عدة روايات تتسم بالجرأة في معالجتها للقضايا السياسية والأجتماعية الشائكة. حصل صنع الله إبراهيم على عدة جوائز أدبية، اخرها جائزة الرواية والتي رفضها احتجاجاً على سياسات الحكومة المضرية. رواية أمريكانلي (أمري كان لي) تدور أحداثها في مدينة سان فرنسيسكو وبطلها أستاذ مصري زائر. والرواية تجمع بين الأنواع المختلفة للسرد: السيرة الذاتية، المذكرات، السرد التاريخي المليء بالمصادر والوثائق التاريخية والمصاحب بهوامش تفيض بمعلومات ثرية عن حقب تاريخية مختلفة بتورايخ وأشخاص تاريخية حقيقية.

1 - انتهيت من قهوتي ووضعت الكوب الخزفي في الحوض. ثم نزعت قمة ماكينة القهوة وأفرغت مخلفاتها في وعاء القمامة. نظفت الطاولة الخشبية المرتفعة إلى مستوى الصدر ثم انتقلت إلى السطح الرخامي للخزانة المثبتة في الحائط. أزلت فتات الخبز وأزحت الستريو جانبا وواصلت التنظيف وأنا أتابع الحركة الأخيرة في سيمفونية لم أتعرف على مؤلفها.

مضيت إلى غرفة النوم فتأكدت من إغلاق المصراع الزجاجي المنزلق المطل على الحديقة الخلفية. ألقيت نظرة على «السولاريوم» ثم عدت إلى المطبخ. كانت الموسيقى قد توقفت وانطلق صوت المذيع يلهث: «باي ناو، باي ناو» ظننت أنه يودع المستمعين في عجلة ثم أدركت أنه يستحثهم على شراء شيء ما. أنصت لأعرف ماذا يبيع. لكنه اكتفى بأن كرر في حماس: «اشتر الآن. اشتر الآن».

أغلقت الراديو وأحكمت إغلاق النافذة المطلة على حديقة المنزل المجاور. انتقلت إلى الغرفة المطلة على الشارع فتأكدت من إغلاق نوافذها. ثم حملت كيس القمامة في يد وكيس الفوارغ الزجاجية في الآخرى ومضيت إلى باب المسكن. وضعت حملي على الأرض وأزلت سلسلة مفاتيحي وانتقيت مفتاح القفل الأعلى ومفتاح القفل الأسفل. دفعت الباب إلى الخارج وعبرت الردهة التي يطل عليها. ألقيت نظرة على باب المسكن المجاور. استخدمت مفتاحين كبيري الحجم لقفلي الباب الخارجي وجذبت مصراعه. عدت إلى الداخل فالتقطت كيسي القمامة وخرجت إلى الحديقة الصغيرة المطلة على الشارع.

كانت شمس الظهيرة في قمة توهجها، لكن النسيم القادم من جهة المحيط حوّل شهر «أغسطس» إلى ربيع. وبدا الشارع الذي تحف بجانبيه الزهور والأشجار بلا مارة أو سيارات. هبطت درجتين ودرت حول واجهة المنزل في ممر يؤدي إلى الحديقة الخلفية تغطيه سقيفة خشبية لتصنع منه جاراجا. أودعت حملي في صندوقي القمامة بمدخله. وأعجبتني نظافتهما وإحكام غطائيهما. وعند عودتي لحظت الخطابات الموضوعة فوق سطح صندوق البريد. لم أكن انتظر رسائل من أحد لكني تصفحتها محاولا التعرف على أسماء جيراني. ثم حملتها إلى الداخل في بادرة حسن

جوار وتركتها فوق طاولة خشبية بجوار الباب الخارجي مغطاة بالنشرات الإعلانية الملونة.

أغلقت الباب الخارجي وولجت مسكني. تركت الباب مفتوحا ومضيت إلى الحمام فغسلت يدي وأنا أتأمل وجهي في المرآة. اتجهت عيناي إلى تجعيدة خفيفة في جانب فكي الأيسر. وخيل إلي أنها ازدادت بروزا فامتعضت. تذكرت جاري في القاهرة وهو مهندس ري فرضت عليه مهنته التجوال في أنحاء البلاد إلى أن تقاعد فصرت أصادفه يوميا عندما أتسوق. لفت نظري بطريقته في السير، إذ يميل بكل جسمه يسارا ويمينا مع حركة قدميه، وبتقطيبة غاضبة لا تغادر وجهه المتغضن.

سويت ما تبقى من شعري الفضي وشبكت قلما في جيب قميصي ذي الكمين القصيرين ثم حملت حافظتي الجلدية ومضيت إلى الخارج. أغلقت باب المسكن وترددت أمام سلة تضم عدة مظلات. فكرت أن أستعير واحدة أواجه بها تقلبات الطقس ثم عدلت عن الفكرة وأغلقت الباب الخارجي بقفليه. عبرت الممشى الضيق وخطوت إلى الطريق.

مضيت فوق الرصيف مبتعدا عن الجزء المخصص للدراجات وأنا أتأمل المنازل المصطفة على الجانبين. كانت كلها مثل منزلي، تتألف من طابق واحد وسطح مائل من القرميد البني اللون ونوافذ مسدلة الستائر وجاراجات مفتوحة وخالية. ولم أر أحدا من الجيران.

مرت بي سيارة قمامة أنيقة نظيفة، يقودها عامل في ملابس نظيفة. وبلغت تقاطع بوليفار «جيري» فانعطفت يمينا. مضيت بجوار ساحة واسعة لبيع السيارات المستعملة تلتها مباني سكنية عالية ذات واجهات حديثة ومداخل مؤمّنة. أوشكت أن أهبط إلى عرض الطريق عند التقاطع التالي دون أن انتبه إلى اشارة المرور. غالبت رغبة

مصرية صميمة في اقتحام المخاطر وكسر كل ممنوع وانتظرت حتي مرت السيارات القليلة. تأكدت من خلو الشارع من السيارات فعبرته دون أن أحفل بالإشارة الحمراء.

كررت المغامرة مرتين حتي بلغت ناصية البوليفار العريض فكبحت كثرة السيارات جماحي. انتظرت حتى المارة، إحداهما امرأة بيضاء بدينة في شورت فضفاض ينتهي أسفل ركبتيها. (مرق) إلى جواري مراهق فوق زلاجة خشبية يقضم ساندويتشا باستمتاع. تسليت بتعداد الشوارع التي تتابع نزولا من الشارع السادس عشر الذي انطلقت منه حتى الشارع الثاني.. كيلو متر ونصف كيلو متر من رصيف عريض تحف به الأشجار تبدو خلفها حوانيت قليلة: مطاعم وصالونات تجميل وصالات عرض. كانت الحركة هادئة كشأنها في بداية النهار فالعاملون المجدون بكروا بالذهاب إلى أعمالهم. والآخرون، المتمردون، لم يستيقظوا بعد.

مررت بحوانيت للملابس والموسيقى ومواد التجميل والأعشاب الطبية. توقفت أمام حانوت كبير للصحف والخردوات. وفي الحال تردد في أذني صوت المذيع: «اشتر الآن». ولجت الحانوت وطفت بأرجائه. ثمة رواد قليلون يقلبون المجلات والصحف بل ويقرؤنها كاملة دون أن يشتروا ودون أن ينهرهم أحد. تذكرت مكتبة «مدبولي» الشهيرة وسط القاهرة حيث يقف اثنان من صبيته أمامها، إلى جوار الصحف والمجلات المبسوطة على الأرض، ويصيحان بلهجة تهديدية «أيوه!» اذا ما تلكأ أحد أمامها أو هم بتناول إحداها.

لم أجد العدد الجديد من «الحياة» فأخذت «الأهرام» التي تحمل تاريخ الأمس و«سان فرانسيسكو كرونيكل» التي تصدرتها صورة

«كلينتون» فوق عنوان رئيسي بعرض الصفحة: «ضللت الناس بما فيهم زوجتي». قلبت صفحات العدد الجديد من «بلاي بوي» و «هاستلر». واستعرضت بقية المجلات الملونة المصقولة التي تضم صورا عارية لفتيات وشبان في أوضاع متماثلة.

أدرت حاملا للبطاقات البريدية المصورة وانتقيت صورة لفتاتين عاريتين تخطوان نحو بوابة الجامعة. كان ظهراهما للمصور وشعورهما طويلة حتي الخصر. وكانت إحداهما تلوح بيدها اليمنى مهللة في اتجاه البوابة بينما ألقت ذراعها اليسرى فوق كتف زميلتها. وحملت الأخيرة فوق ظهرها حقيبة مدرسية منتفخة، تدلى منها شريط استقر طرفه فوق الشق الفاصل بين فلقتي مؤخرتها العارية. لم تكن الصورة تثير غير الابتسام بسبب واقعيتها الشديدة التي تبدت في أفخاذهما المترهلة.

حملت البطاقة والصحيفتين إلى الكاونتر فتأملتني البائعة بامعان. كانت خمسينية ممتلئة بيضاء البشرة. خاطبتها بالإنجليزية فردت عليّ بالعربية: عربي؟

أومأت برأسي مندهشا وأضفت: مصري.

قالت: وأنا كمان.

ذكرت لي أنها من «الأسكندرية» وتقيم في «أمريكا» من خمس وعشرين سنة. وفهمت أن الحانوت ملك لها ولزوجها. دفعت بالشيكات السياحية وغادرت الحانوت. واصلت السير بضعة أمتار ثم انعطفت في شارع منحدر واجتزت البوابة المفتوحة للجامعة. مشيت مسافة وسط مساحات واسعة من الخضرة تكاد تخلو من البشر لأن الفصل الدراسي لم يبدأ بعد.

مرت بي فتاة دقيقة الحجم ذات ملامح أسيوية ترتدي بلوزة رقيقة كشفت عن صدر صغير بلا سوتيان. وبدت حلمتاها منتفختين.

من الحرارة والعيون أم من احتكاكهما المستمر بالقماش؟

بلغت مبنى معهد التاريخ المقارن فجذبت مصراع الباب الخارجي وظلت ممسكا به لتتمكن فتاة سمينة من الخروج دون أن تعبأ بشكري. ارتقيت المصعد إلى الطابق الثاني وخرجت إلى ردهة يتصدرها كاونتر دائري تجلس خلفه سيدة سوداء ضخمة، أربعينية. كانت تحدق في جهاز كومبيوتر أمامها وهي تقضم جانبا من فطيرة بفم بالغ الاتساع. حييتها فردت بابتسامة متكلفة وهي تعيد بقية الفطيرة إلى علبة حلوى وضعت فوق حافة الكاونتر ليأكل منها من يشاء. كان باب الغرفة المجاورة مفتوحا فولجتها.

وجهت التحية إلى ظهر شقراء ممتلئة تدق على مفاتيح الكومبيوتر بسرعة خاطفة. ردت دون أن تلتفت نحوي وواصلت الدق فجلست على مقعد مجاور لمكتبها. وواجهتني على الجدار صورة كبيرة ملونة لها مع شاب أشقر مثلها وطفلين يشبهانها.

تحولت إلي قائلة: كيف حال المسكن؟

كانت هي التي عثرت عليه بعد أن فشلت محاولة الحصول على مكان في مساكن الجامعة. وكتبت لي قبل قدومي من «القاهرة» تهنئني في حماس على حظي الحسن لأن صاحبه سيسافر مدة الفصل الدراسي ولا يطلب ايجارا له أكثر من ألف وخمسمائة دولار في الشهر وهو رقم معقول لن أجد أفضل منه بالنظر لأنه قريب من الجامعة وله شخصية -على حد تعبيرها- ومؤثث بالكامل ويحتوي على غسالة ومجفف

وتليفزيون وفيديو وحديقة صغيرة يدفع المالك أجرة بستانيها الذي سينوب عنه في كل شيء. وقال إن المالك لا يشترط سوى عدم التخلف داخل المسكن وهو أمر طبيعي فمن الصعب وجود من يقبل مدخنا في كل «كاليفورنيا» وعندما أبديت تحفظي على قيمة الايجار قالت إني لن أجد أقل من ذلك خصوصا وأن المسكن يضم «سولاريوم». وأقنعتني هذه الحجة الأخيرة إذ تصورت أنها تشير إلى جهاز خاص ذي فائدة جليلة وخجلت أن أبدي جهلي بالاستفسار عن كنهه.

لم تنتظر اجابتي وأضافت: لا تنسَ أن تغلق بابك جيدا. ولا تفتح لأحد قبل أن تطمئن إلى هويته.

أوحت لي لهجتها أنها تتمنى أن يحدث لي شيء أو على الأقل ترغب في أن تحرمني نعمة الطمأنينة.

كانت «جيني» في بداية العقد الثالث من العمر، بوجه نمطي لا يتميز بشيء، مليئة بالحيوية، تحب أن تعطي انطباعا بأنها عاملة مجتهدة تتمير بالكفاءة وسرعة الإنجاز.

فتشت طويلا بين الملفات المرتبة بنظام فوق مكتبها وفي أدراجه وفي خزانة مجاورة تحمل فوق سطحها ماسحا ضوئيا وطابعة ليزر. وأخيرا قدمت إلي مجموعة من الأوراق لأملأ بياناتها: بطاقة هوية، دفتر تدريس، طلب استخدام مودم أو كمبيوتر، طلب الحصول على بريد إلكتروني، طلب استخدام المكتبة، طلب إعفاء من الضرائب على الدخل، طلب الحصول على مكان انتظار للسيارة. ثم مجموعة من الكتيبات الفاخرة خاصة بشركات التأمين الصحي.

أعدت إليها طلب الحصول على مكان انتظار للسيارة معلنا أني لا أنوي امتلاك سيارة أو القيادة. ملأت الأوراق الأخرى وتصفحت كتيبات التأمين الصحي في حيرة. فأنا من جيل نشأ على أن الدولة مسؤولة عن صحته ولم يألف بعد أن تتولى ذلك شركات خاصة.

نهضت واقفة وقدمت إليّ حفنة مفاتيح: مفتاح باب المبنى، مفتاح المصعد، مفتاح المطبخ. مفتاح القسم، مفتاح صندوق البريد الموجود في غرفة صغيرة مجاورة، مفتاح جهاز النسخ وكلمة السر التي تمكنني من استخدامه، وسابع لباب يفصل بين الجناح الإداري وبين مكاتب الأساتذة.

احتفظت بأحد المفاتيح في يدها ودارت حول المكتب قائلة: تعالَ أريك مكتبك.

تقدمتني إلى الخارج في نشاط وتوقفت أمام الكاونتر فالتقطت قطعة من علبة الحلوى التهمتها وهي تتجه بخطوات سريعة إلى طرقة طويلة تطل عليها غرف مغلقة. توقفت أمام إحدى الغرف وفتحت بابها بينما كنت أقرأ لوحة معلقة على الجدار تتضمن ارشادات التصرف عند حدوث الزلازل.

أيام الضياع في أمريكا

صراع القيم

سعد الدين البدويهي (2004)

سعد الدين البدويهي مؤلف مصري.

كلما جرت أحداث جديدة من حولنا وتغيرات عظيمة، تغير أحوال واقتصاديات شعوب بأكملها، كما تؤثر في معظم الأحيان على أخلاقيات الكثيرين أو الغالبية العظمى للناس، يتسابق الناس لتفسير ما جرى بتحليله ليدركوا أسبابه وسبل عودته للأصل.

لكن هذا لا يكفي فلا بد أن نجد السبيل الذي يجعلنا نتوقع حدوث التغيرات قدر الاستطاعة، وكذلك يجب أن نهتدي لما يجعلنا نقرأ ما بين السطور ونفهم ما يدور خلف الأبواب المغلقة على أساس علمي سليم لنعرف عوامل التأثير الايجابي والسلبي لإحداث مثل هذا التغيير ثم عوامل بقائه، وضرورة البحث في القيم يأتي بسبب جهلنا لها فلا أحد يعيرها اهتماماً رغم أنها أهم العوامل والدوافع التي تدفع وتنظم وتحكم وترسم مستقبل علاقات البشر سلبا وإيجابا سواء على المستوى الفردي أو الجماعي أو الدولي.

لذا وجب علينا بحث هذه الركيزة الأساسية في تعاملات البشر لنتعامل كل فريق بما يناسب قيمهم، كما يمكننا ذلك أيضا من التأثير الإيجابي في التغيرات الجارية في العالم والتنبؤ بالجديد فيها.

القيم فروع وشعب كثيرة فمنها المادي والحسي والمعنوي والفني... الخ والقيم كالعادات والتقاليد أو هي جزء لا يتجزأ منها أو قل هما وجهين لعملة واحدة فأوجه التشابه بينهما كثيرة، ومنها القيم العالية ومنها ما دون ذلك حتى الدرجات الصغيرة الحقيرة وكذلك العادات الطيبة الحسنة التي تحض على الخير وتجمله وتحسنه، ومنها ما يكون وراءه حكمة عالية العادة فتزيدها خيرا على خيرها وجمالا على جمالها كما تدعمها فيطول عمرها وقد لا تزول من المجتمع.

كذلك الشبه الأهم هنا والذي هو مناط هذا الكتاب، هو اختلاف القيم والعادات من حيث الرفعة أو الدناءة باختلاف الزمان والمكان، أو بالأحرى باختلاف المجتمع المتكون من مجموعة من البشر ولا ذنب للزمان ولا المكان إذا هبطت القيم وانحدرت حتى أننا قد نرى من بين المجتمع بعضا ممن سمت نفوسهم عن قيم هابطة في مجتمعاتهم فلا الزمان ولا المكان ولا حكم العادة غلب على حكمهم على القيم المجردة.

وقد ترى ذلك فيمن تحب وتكون هذه الرؤية أحد أسباب حبك اللاشعوري لمن تحترم أخلاقيا وإنسانيا أو شخصيا وبالمثل يسهم اللاشعور في احترامك لهذا الانسان.

وأعلى من هذا وذاك الإنسان الذي تعتبره قدوة لك تريد أن تتمثلها وهذا في رأيي أعظم من الحب والاحترام وحيث تريد أن تتمثل هذه القدوة لتكون أنت، ومعنى هذا أنك تحب هذا الشخص القدوة قدر حبك نفسك، ولا أعلى ولا أقوى من حب النفس عند الانسان.

وفي هذا قد يدور جدل وقد يختلف البعض في هذا الرأي إلا أن الاتفاق على أن القدوة وعلاقتك بها أقوى من أن تحب إنسان أو أن

تحترمه قد لا يختلف عليه اثنان، ثم تعالوا هنا نسأل، ولماذا الكلام عن القيم؟ وهل موضوعنا أن نبحث ونفاضل بين العليا والدنيا؟

وأجيب أن ليس موضوعنا أن نبحث لنقرر أي القيم أعلى وأيها أقل ليس تجاهلا ولا تحقيرا لها ولكن لأسباب أخرى أرى أن اذكر هنا بعض منها.

1 – القيم: القانون يستمد وجوده وبقاؤه من الحكمة ولا حكمة بغير قيمة ندافع عنها

قد يقرأ هذا الكتاب مجموعات أو أفراد من الناس من الذين قد يختلفون مع تصنيفنا لبعض القيم، وهذا الاختلاف قد يتباين ويتدرج وكل في النهاية يعمل حسب ثقافته وفهمه وكذلك قيمه التي تعملها أو قد تحكم قيمه التي يعلمها لا التي تعلمها. وقد يضيع عند هذا الخلاف معنى وقيمة البحث المجرد في القيم كقيمة في ذاته كما قد يضيع وقتنا جميعا في خلافات لا عائد منها، ولتسقط بعض القيم في تلك الحرب الجوفاء ومعها أو أولها قيمة هذا الوقت الذي قد يضيع فيها.

في معظم الأحوال فإن الكلام لا يجدي في المواضيع التي غلب الطبع والتمرس عليها على مر السنين فكل منا قد تشكل حسب بنيته الأخلاقية، كذلك تجاربه وملاحظاته الشخصية التي أثرت فيه – وغالبا – تأثرت بلمساته الخاصة فصارت جزءاً من شخصيته.

للسببين السابقين، بالإضافة إلى غايتنا لهدف يجمعنا لنتفق – ولو للمرة الوحيدة- أن يكون الكلام مجردا بعيداً عن الكلام الصريح الذي يشير لأشخاص أو لفئات أو مهن، فنعود إلى الخلافات الشخصية التي تصرفنا عن قيمة اجتثاث المرارة بيننا بني البشر، فيسئ بعضنا

فهم البعض أو قد يتهم البعض أحد الدول الأجنبية الوثيقة الصلة بكل العبث الجاري أو حتى العمالة لحساب أحد الكتاب الذين نشروا سموما شبيهة لتضليل العدالة الإنسانية أو لأسباب لم نسمعها بعد.

لكل ذلك وجدت أن أسلم طريق للحديث مع أجيال قادمة لنتواصل معها هو الحديث المجرد وليرى كل فرد لنفسه التفاصيل التي تمليها عليه ظروف المكان والزمان والحاجة والمهنة... وإلى آخر العوامل التي تؤثر فينا ونتأثر بنا.

الحكمة تأتي دائما لتغرس قيمة وتثبتها في النفوس أو على أقل تقدير تؤكد وجودها في «معاملات». هذا لأن مجموعة القيم هي في الحقيقة المصدر الرئيسي للقوانين، فلكل قانون يحكم المعاملات بين البشر حكمة من ورائه انبعثت منها وهي تظل وراءه ما بقي على وجه الأرض، تدعمه وتثبته وتساعده على البقاء والاستمرار وليس مهما لبقائه كقانون للناس أن يكون معمولا به في المحاكم والعكس.

فالقانون يأخذ قيمته ويستمد وجوده وبقاءه من الحكمة، ولا حكمة بغير قيمة تدافع عنها، ولأن الشيء بالشيء يذكر فإن رأيي الشخصي حين يقف أحدنا موقف القاضي ليحكم بين طريقين أو شخصين على خلاف ما، فلينظر إلى القيمة التي يدعو اليها أو يؤدي لها كل منهما، أو بمعنى آخر فإن القيم وحدها يمكن أن تؤدي عمل القانون إن لم يكن يوجد قانون ما، ليقضي في حالة ما، بل أقول إن وجدت القيم العليا السليمة الكاملة لدى الناس جميعا فلا حاجة لنا بالقوانين والمحاكم والمحامين... أظنك أدركت معي ماذا يعني النظام والقوانين والمحاكم في كل مكان فهو وحده شاهد علينا، وأكبر

شاهد في هذا النظام هو عدد القضايا المنظورة ناهيك عن نسبة القضايا في الاستئناف والمعارضة والطعن وخلافه وانظر فقط فيمن حولك كعينة عشوائية من الناس وفي هذا الكتاب سنحاول معا أن نفكر ونبحث في القيم، الموجود منها والمفقود وما تغير وتبدل، العالي منها والدنيء وما تحسنه الأيام وما تفقده معناه.

وسأحاول قدر الإمكان ألا أقول رأيا شخصيا ولا حكما على قيمة بعينها. لأني لا أريد أن أنفرد في هذا الحوار بالرأي وليكن لكل منا رأيه الخاص في هذا العالم الذي اختلفت فيه الآراء حول القيم اختلافا أقل ما يقال عنه إنه مخيف ولأننا جميعا - كبارا وصغارا- نعرف الجيد والرديء، الصواب والخطأ. فحتى اذا أبديت رأيي فلن يؤثر هذا فيمن اختلف معه في الرأي وسيظل على رأيه مهما طال الجدل بل قد يشحذ همته ويبحث ويجتهد ليقوي موقفه المخالف، والعكس قد يكون صحيحاً فحين أسترجع قيماً مفقودة وأهتم لها ووافق ذلك رأيك، حزنت في نفسك التي طالما قضت مضجعك وقد تثبط هممك لإحياء القيم المقتولة فينا جميعاً وقد تنجم هذه الأحاسيس لاشعوريا بسبب إحساسك أن هناك من يتفقون معك في إن القيم قد ضاعت والآن لم يصبح لديك شك في فهمك للأمور وأن البشر التي أجمعت على أن فعل الشر هو الصواب فجعلتنا نشك بذلك في أنفسنا ونشك حتى في قيمة القيم، وليس لنا من ملجأ ولا مخرج إلا بالهجرة إلى عالم خيالي داخل أنفسنا لنعيش فيه في سلام. حتي إن لزم ذلك أن نرى الناس بوجه آخر حتى لا يقولوا: (أبله)، وإن لزم أن نعيش بانفصال في الشخصية حيث إنها في هذه الحالة ليست حالة مرضية حيث نقننها ونعيها ونحدد متى تنفصل الشخصية ولماذا.

ولأن الأحداث الكبيرة والضخمة التي تؤثر بنتائجها على عدد كبير من الناس والدول، دائما ما تفرض نفسها على كل حديث، كانت أحداث 11 سبتمبر لعام 2001 والتي راح ضحيتها مالم يعلمه إلا الله، فقد مات في مبنى التجارة الدولي بنيويورك بضعة آلاف من البشر ولكن تتابعت سلسلة من الانتقام ليس لهم ولكن لكرامة أو لتبيان كرامات الولايات المتحدة، هذه السلسلة من الانتقامات والحروب التي شنتها وتشنها أمريكا تحت غطاء من التشدق بالقيم العليا والأهداف النبيلة والتي يدعون أنهم يدافعون عنها ويخوضون الحروب من أجلها بل يموتون من أجلها.

وهذا النوع من «البولوتيكا» يعجب الناس كثيرا، ولذلك فهو يكثر عند اللقاءات والاحتفالات، خاصة مراسم دفن وتأبين قتلاهم في تلك الحروب فيتأثر الجميع، ويحس بالفخر من ينتمي لهذا البلد وبقرابته لهذا القتيل، ولكن الخدعة هنا هي أن الأمريكان جميعا لا يعرفون بالتحديد ما هي تلك القيم التي يدافعون عنها، وهؤلاء السياسيون وصانعو القرار الأمريكان الذين يتشدقون بتلك الكلمات لم يعلنوا في كلماتهم الرنانة وخطاباتهم المؤثرة عن حقيقة المقصود بكلمة قيم التي يطلقونها بأفواههم فيطأطئ الناس رؤسهم لها ولقتلاهم –من أجلها– فيظن المتحدث أنهم يطأطئون رؤسهم له.

ولقد أصبح البحث في هذا الموضوع أمرا ملحاً بعد أن تضاربت ظواهر الأمور وبعد أن أصبح ما يعرفه الناس في الشارع ليس هو ما يعرفه الخاصة، مع عدم اتفاق هذا ولا ذاك مع ما تعلنه وسائل الإعلام وربما كانت حقيقة الأمر شيئا آخر خلاف ذلك.

فأصبحنا لا نعرف حقيقة القيم العليا المطلوبة منا وسط هذا التشابك وعدم الوضوح فهل هي قيمة اغتصاب الأقوى للأضعف أم هي حقا قيمة العطاء (بالقوة أو بالإكراه) من الأقوى للأضعف والأفقر وهل حقا يحاربون الضعفاء والفقراء الذين يرفضون عطية الأغنياء وهل وصل البشر لهذا السمو الأخلاقي الملائكي من جانب الأقوياء، والغباء والتخلف الفكري والاقتصادي من جانب الضعفاء؟

ولأنهم لم يشرحوا لنا ماهية هذه القيم العليا والأهداف النبيلة سرا يستأثرون به ولا يعلنون عنه فإنه على كل راصد للقيم العليا والمهتمين بأمرها بحث هذا الموضوع للخروج بتفسيرات معقولة ونقصد أن تكون قابلة للفهم بالعقل البشري السوي وربما كان هذا لزاما علينا جميعاً.

كذلك ضرورة البحث عن أسباب وقوفنا موقف المدافع مرة والمتفرج على الأحداث مرات فربما كان أحد الأسباب الأدهى والأمر وهو عقدة الخواجة، فما زلنا نتبع خطوات ونقدس عادات (دون أن نعرف أصولها ومعانيها) ولا أعلم كيف حدث لنا هذا ولأي سبب تاريخي أو غيره. ولا أحد منا ولا منهم لا يعرف هده العقدة ولا أحد ينكرها، فاذا أردنا تصميم مشروع ضخم لجأنا لبيوت الخبرة العالمية واذا أردنا بناء مستشفى لجأنا للشركات الأجنبية حتى بعض تصميمات الحدائق وسلالمها خضعت لنفس النظام أو العادة (وربما بغير ذلك لا تكون جميلة في نظرنا).

حتى بعض مباريات كرة القدم يلزمها حكم من الخارج - ثم من باب العدل- بعض الأندية الأخرى الأقل درجة والمباريات الحساسة أصبح يلزمها حكام خواجات.

وأذكر أني زرت أحد مواقع العمل في مترو الأنفاق بالقاهرة، وقتها قال لنا كبير المهندسين (المصري) بالموقع إن ما يتم عمله في هذا المشروع هو بالضبط ما يُدَرس بكليات الهندسة من حفر وتدعيم للحفر والخرسانات وتصميمها وتنفيذها وعمل أنواع العزل اللازمة ضد الماء وخلافه إذا لزم الأمر، ثم قال لنا إن الفارق الوحيد بيننا وبين الفرنسيين (الشركة المصممة والمنفذة كانت شركة فرنسية) أو الخواجات عموما هو أنهم يعملون طبقاً لهذه النظريات والمواصفات تماما ولا نفعل نحن ذلك...

وربما لمست بهذا أحد القيم المفقودة لدينا ولكن ليس هذا هو موضوعنا الآن،فالموضوع الأهم الآن هو ضرورة إعادة النظر في كل شيء وأن ننظر لهم نظرة الاتهام وعليهم أن يثبتوا (بالعمل) وليس بالكلام أن كلامنا عنهم وعن سقوطهم وسقوط قيمتهم ليس صحيحاً، وحتى يحدث هذا فهم المتهمون. ولكن للأسف لا نتوقع أن يخرج منهم من يدافع لأنهم ببساطة لا يبالون بنا ولا باتهاماتنا، بل ولا يبالون بحياتنا ولا بموتنا، كما ينبغي ألا نبرئ أنفسنا فعلينا أيضا أن ننظر نظرة شاملة لكل قيمنا الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية والأدبية لنجد ما فرطنا فيه يعود لأيدينا ونحاول إيقاف موجات التقليد الأعمى لكل شيء غير نافع وتم نقله عنهم فقط لأنهم يفعلونه أو يقترحونه، فأصبح كأنه أمرا لازما علينا ملزما لنا.

وأتصور ذلك وقد أثر في حياتنا حتى في فهم المثل الشعبي «ما يجيش من الغرب يسر القلب» فأنا لا أرى في فهمنا العام أن هذا ينطبق على أفلامهم العنيفة التافهة (فهم) والشذوذ الذي يسمونه (حرية)، ويحاول الكثير منا تقليدهم تقليدا أعمى.

وعلى النقيض من ذلك أرى في فهمنا واستيعابنا للتطور التكنولوجي ومظاهر التقدم العلمي لديهم تطبيقا حرفيا لهذا المثل الشعبي لنستمر في تخلفنا المتزايد ونستمر في الاستجداء منهم والرضا بالفتات من الخبز والعلم معا...

وإذا جاز لنا استيراد منتجات زراعية كالقمح والفول وخلافه لأننا اعتبرنا كلمة فلاح صفة مذمومة وليست عملاً مهما وأساسياً في المجتمع وعمارة الأرض، وإذا ترتب على ذلك استيراد نفس هذه المنتجات بعد تصنيعها (كالفول المدمس) فإن هذا أو ذاك لا يجيز لنا أبدا استيراد قيم لا تنبع من قيمنا ولا تتفق مع معها ومع ظروفنا الخاصة بنا بل لا نحتاجها لأنه لا يمكن خلط جزء من منظومة قيم بمنظومة أخري لا تتفق معها حيث نبت على مر العصور أن عمليات الخلط هذه فاشلة دائما.

وكذلك لا يجوز لأحد أو لدولة فرض كل أو جزء من قيمها على آخرين إذا هم رفضوا هذه المنظومة بالإكراه.

وعلى هذا فإنه علينا جميعا مراجعة ما لدينا من قيم وإعادة بناء منظومة القيم الضائعة دون أن نبدأ حيث انتهى الآخرين ولكن ليكن البناء على أساس من قيمنا التي عرفناها وجربناها وإلا كانت الكارثة!.

2 - قيمة القيم: العلاقة عكسية... بين القيم التي تحمي كرامة الإنسان،وبين الثمن المادي لتلك القيم.

لكل شيء في الدنيا قيمة تضعه في درجته الخاصة به بين الأشياء وتحدد مكانه ومكانته في سوق معاملاتنا اليومية مع بعضنا البعض؛

ولكن انظر معي لبعض الأمثلة والتي قد تحدث كلها أو بعضها لفرد واحد أو يسمع بها ويتعجب بعض الأحيان معجب بها أحيانا أخرى.

فمثلاً حين يخرج عليك قطاع طريق ليسرقوك بالإكراه، ينزلوا عليك في بيتك ليأخذوا كل ما تملك - ماذا تظن انهم فاعلون؟ أتصور أن واحدا يجيء من خلفك ليحكم وثاقك... مجيئه من الخلف إنما يعني الخسة والنذالة وهذا أول ما ستعلمه عنه رغم عدم معرفتك السابقة به. ثم تجد زميله قد جاء وكأنه هو الشجاع ليواجهك بعد تمكن الأول منك وربما كان معه سكين طويل عريض لامع حتى لاتخطئه عينيك ولا تظن مجرد الظن أن النجاة من هذا الموقف أمرا ممكن، والآن عرفت المطلوب منك إما حياتك أو موتك الفوري بغير جريرة فحتى الآن لا تعرف ما المسألة بالضبط؟ وما المطلوب؟ ربما كان في التفاوض نجاتك أو ربما كان لهم ثأر عند أحد الأشخاص وجاءوا ليقتصوا منك بطريق الخطأ.

ربما أردت أن تكلمهم أو بالفعل كانت لديك القدرة على الكلام ولا يجيبوك وكأنه لا حياة لمن تنادي إذن فهناك شيء مطلوب منك ولكن لا تعرفه كي تنجو - اذن فما المطلوب بالتحديد لنفعله؟ وكفى الله المؤمنين شر القتال...

ثم يأتي السؤال الأخير والأهم كيف تطلب حياتك وأنت لا تستطيع الحركة، بل في الحقيقة لا تستطيع مجرد الكلام. ولكن اذا كان لديك ما تقدمه فدية لحياتك من أموال فلتتكلم هذه الأموال التي هي - للأخرس لسان.

ربما حتى أخذوا كل ما تمتلكة من مال والذي هو نتاج عملك في عمرك المنصرم ورضيت وفرحت بذلك فقد تركوا لك نصف عمرك وأخذوا عمرك الآخر قدر مهما كلف ذلك مع اتخاذ مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مطية لك في كل حين وبينهما درجات أو دركات.

ومثلا من مثالنا هذا حين تحدث «حسين» مع «حسن» لإعادة المال إليك كان حسين أكثر مثالية حين احترق قلبه عليك وعلى تعبك في جمع هذا المال وكان كل همه إعادته إليك فقط، أما حسن فكان بالطبع يود إعادة المال مع تمني أن تكافئه وأن يعود عليه بعض النفع المادي نتيجة لهذا الموقف وهذا العمل وهذه درجة أقل من حسين ولا نعيب ذلك على حسن فلا مانع أن تكون أمينا وأن تصاحب هذه الأمانة شيء من حب النفس بالإضافة لحب الناس وحب القيم ولو كانا سلكا هذا الطريق لعاد إليهما بالنفع المادي مع النفع المعنوي كما انتفعت أنت أيضا بأمانتهما فلا ضرر في ذلك ولكن السمو والعلو يتطلبا أن تكون القيم مجردة فأكون أمينا للأمانة ذاتها، ليس لأحد دون الآخر ولا حتى لنفسي بأي درجة من الدرجات فلا نافع ولا منتفع ولا تنتظر من شخص در بمثل أو مثلين.

ولكن حد علمنا أنك لو فعلت ما أمر الله به وانقطعت عن عمل نهى الله عنه وكانت نيتك التي حدثت بها نفسك أن تضرب عصفورين بحجر لتنال رضا الله سبحانه وتعالى عليك ولكن لأن القيم لم تكن هي المطلوبة، ولأن الذي فرض القيم لم يكن وحده هو المطلوب والمقصود. ولأن الخير لم يكن مجردا عما حولك من ماديات ولأنه يقدر ويأبى فهو ينزه نفسه عن رزيلة تلوث تلك القيم بأغراض أخرى

خلاف مرضاته ولكن دائما اذا ما نظرت جيدا وبكل ما أوتينا جميعا من علم إلى هذه الأعمال التي يرتضيها الله سبحانه وتعالى سنجدها جميعا تدعو إلى قيم عليا أو منبعثة من قيم عليا ذات حكمة بالغة في بناء أفراد ومجتمعات ذات بنيان سليم ومن كرم الله ورحمته أن شجع الناس على التزام تلك الأعمال الصالحة والقيم البناءة بأن جعل جزاءها جزاءً عاليا لا يستطع أن يقدمه أو ينافس فيه أيا من البشر بل الخلق جميعا مجتمعين وجعل عدم الإخلاص في تلك الأعمال مساويا لعدم الإخلاص له بالعبودية سبحانه وتعالى.

ومن هنا يمكننا القول بأن العلاقة السليمة بالله وحسن عبادته والإخلاص له في السر والعلانية هي من أعلى القيم التي تنبعث منها كل القيم العليا السليمة في العلاقة السليمة مع الناس، وهذه العلاقة بالطبع ليست مرتبطة بعائد مادي كما رأينا في المثال البسيط الذي تقدم. وفي هذا المثال لم نتكلم عن الأمانة في حد ذاتها ولكن كمثال مادي يمكن أن نحسه ونراه ونحسبه بخلاف قيم كثيرة مرتبطة بمعنويات غير مرئية وتختلف قيمتها من فرد لآخر حسب نشأته وثقافته وفوق ذلك فهي تعبر عن كل أمانة يتحملها الإنسان على الأرض كما أراد الله له ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوما جهولا﴾ فالأمانة التي حملها الإنسان بمعناها الواسع الذي يمتد لكل القيم العليا هي بالأحرى المعنى المقصود للأمانة بعمومها لغويا فالأمانة الكبرى التي يحملها الإنسان هي عبادة الله سبحانه وتعالى كما أراد الله منه حين خلقه وتحت هذه الأمانة تندرج وتتدرج أمانات اخرى

منها ما نعرفه جميعا وما هو مطلوب بيننا ولذلك نعرفه ونعرف قدره كما ينبغي ومنها أخريات خافيه الأثر علينا ولا يعرفها منا إلا القليل وكما قدمنا فمن يقوم بحق هذه الأمانات الخافية والخافية الأثر هم الجنود المجهولون ذوي النفوس العالية التي تقدم القيم بذاتها فوق السمعة والشهرة والعائد المادي، فمثلا العلم أمانة والعمل أمانة والعمل بالعلم أمانة كل أمانة في صاحبها، والعدل أمانة وفي محاكم القانون يظهر أثر العدل في الناس أفرادا وفي مجتمعاتهم حتى أن الكلام في الحديث القدسي حين تطرق للعمل والحساب في الآخرة عن العدل تكلم عن العدل في قلب القاضي قال ما معناه أن القاضي الذي يميل قلبه لطرف دون الآخر سوف يتزلزل من تحته الصراط أو الأرض التي يقف عليها فتتبعثر أشلاء جسده حتى وإن كان قد حكم بالعدل فحكم الحاكم بالعدل ليس كافيا حتى يسمى عند الله حاكم عادل وإنما من الضروري أن يحكم أيضا على قلبه بالعدل وألا يميل لإعطاء الحق لواحد دون الآخر قبل أن يحكم العقل بالعدل والعدل بالعقل، والعدل خارج المحاكم مطلوب أكثر، واذا تدرجنا بالأمانات فقد نجد أقل الأمانات في درجتها هي الأمانة في المال عكس ما قد يتصور البعض وأذكرك يا أخي الإنسان أنه كلما كانت القيم لها أثر مرئي وذات عائد مباشر على صاحبها فهي أقل درجة من تلك التي تخفى عن العامة ولا يدرك أثرها إلا الخاصة.

وخلاصة هذا أنه لا قيمة مادية من القيم وكلما قل العائد منها على صاحبها كلما عظمت وتجلت وسمت ودلت على علو وسمو صاحبها كذلك المثل القريب الشبه جدا من المثال المذكور حين

ضرب الأمريكان أفغانستان وشردوهم في العراء ثم بعد ذلك قطعوا كل المعونات المرسلة اليهم كذلك المعونات المرسلة للفلسطينيين وأيتامهم وأراملهم وذلك بأن أغلقوا أبواب الجمعيات الخيرية الإسلامية في أمريكا وأوروبا وصادروا أموالهم التي هي أموال المسلمين وتبرعاتهم (وادعوا أن كل هذه الجمعيات تدعم ما يسمونه إرهاب). وبعد ذلك ظهرت على شاشات التليفزيون عبوات القمح الأمريكية (تتهمر) لتشبع جوع الأفغان وليرى العالم كله كرم أخلاق هذا المارد الجبار الذي في الحقيقة لم يطعم هذا الشعب شفقة منه، ولكن حباً للسمعة والتعتيم على أبصار الناس في محاولة لإقناع العالم أن الهدف وراء تشريد ملايين الأفغان الذين معهم إنما هو هدف شريف ونبيل.

كما أن الأمريكان لم يطعموهم من أموالهم ولكن بأموال المسلمين أو بأقل منها في الحقيقة والباقي لجيوبهم والآن علينا جميعا أن نشكرهم ونحييهم ونشد على أيديهم -هؤلاء السارقين- فوقف بوش الابن يقول للشعب الأمريكي أن أطفال أمريكا كانوا فعلا كرماء ومعطائين للأطفال في أفغانستان حين أرسلوا لهم بحوالي 450 مليون دولار في صورة لعب أطفال بل الشعب كله فقط، كان يكفي أن يترك أموال زكاة مال المسلمين تصل لمستحقيها ولأطفال أفغانستان ونقول له: اترك الناس وشأنهم أم أنك تظن أن الله أعطاك حق الحل والربط في أقدار الناس أم كذلك أقنعك أبناء صهيون (ويهوذا) بهذه الخدعة الجديدة لتحارب من أجلهم وهنا نقول لراعي وراعية البقر الأول أنه سواء في أفغانستان أو غيرها فإن

حضن الأب لابنه في سلام لا يعادله ملايين لعب الأطفال، كما أن قمح أمريكا كله لا يعادل أن تطأ قدم غاصب نجس أرض مسلمين، نذكر هنا أن «توني بلير» رئيس وزراء بريطانيا (التي كانت عظمى) أعجب بالسارق وأخذ يتجول في بلاد المسلمين ليقنعهم بعدالة قضية السارق الجديد الذي ورث الامبراطورية الإنجليزية وللأسف لم يملك الإنسان في أي منا إلا أن يمصمص شفايفه عجبا للدنيا وما يحدث فيها ونحن نرى زعماء الامبراطورية السابقة يسعون لخدمة بلاط الامبراطورية الجديدة الوريثة، عجبا على توني بلير الذي يرعاه بوش وعجبا على بوش راعي البقر.

أما حين تنظر لقيم كلًا منهما فإنك تتفهم بسهوله كل ما يحدث حين تجد وتتيقين أن كليهما يسعى فقط لجمع المال وكما قلنا سابقا فإن هناك علاقة عكسية ما بين القيم العليا التي تحمي كرامة الإنسان على جميع أطراف التعامل وأولها من يحملها وبين السعر والثمن المادي لتلك القيم. هنا فقط تجد أنه لا عجب فيما نرى! لا عجب أن ترى اللاهثين وراء المال يخدمون في بلاط الامبراطورية الجديدة ليحجزوا أماكنهم في أول الصفوف وقت توزيع الغنائم، ولا عجب أن يعملوا جاهدين لغسل يدي بل قدمي الامبراطورية والامبراطور من دماء الأبرياء لتبدو بريئة نظيفة خالصة من أي ذنب ولعجب حين يقبلون تلك الأيدي والأقدام محاولين إقناعنا بنفس الفكرة وربما كانو آملين بذلك أن يعطونا المثل والقدوة لنحذوا حذوهم، فإذا كانت الامبراطورية السابقة رضيت بهذا الوضع المهين في ظل النظام العالمي الجديد فمن باب أولى أن يتبعها الضعفاء، هذه هي القيم

الجديدة التي تعلو بصاحبها إلى أعلى مطاف الأغنياء والمنافقين الذين كلما طأطأوا رؤسهم علت مراتبهم ومرتباتهم.

لماذا يكرهوننا؟

ناصر الدين محمد الزمل (2004)

ناصر الدين محمد الزمل كاتب سعودي. عنوان كتابه لماذا يكرهوننا؟ صدى لسؤال أمريكية قالته وهي خارجة من الأنقاض التي سببتها أعتداءات 11 سبتمبر المريعة على برجي التجارة في مدينة نيويورك. يعالج الكتاب قضايا مختلفة منها السياسة الأمريكية والارهاب، تاريخ المليشيات الأمريكية، جماعات التعصب العرقي في أمريكا، الجريمة في أمريكا، التزام أمريكا المطلق بأمن أسرائيل، احتلال أمريكا للعراق، القبض على صدام حسين، وموضوعات أخرى.

كتب علينا نحن المسلمين العرب أن لا نموت أو تهدم بيوتنا فوق رؤوسنا، وأن تدفن مدننا وحضاراتنا التي عاشت قروناً قائمة بكل عزة وعنفوان إلا بالسلاح الأمريكي، وما زال من بيننا من يهتف بأعلى صوته عاشت أمريكا... فلتحيا أمريكا!!! ومثاله الأعلى الديموقراطية الأمريكية، والحرية وحقوق الإنسان التي تجلت بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 م.

إن تلك الأصوات ضعفت وفقدت قوتها، بل ومبرر افتتانها، بعد أن أماطت الولايات المتحدة قناع الزيف الذي تباهت به كثيراً... الديموقراطية، والحرية، وما لبث أن انقشع ذلك القناع، وانكشف الوجه القبيح...

وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، قامت الصحافة الأمريكية وخصوصاً «وول ستريت جيرنال» في استقصاء الرأي في منطقة

الشرق الأوسط. لقد حاولت الصحافة الأمريكية أن تجد إجابة عن سؤال الرئيس الأمريكي جورج بوش الساذج «لماذا يكرهوننا، مع أننا طيبون؟» والواقع هو أن «وول ستريت» قد قدمت بعض الإجابات حتى قبل أن يطرح الرئيس الأمريكي سؤاله. لقد ركزت الصحيفة مسحها لآراء أناس في المنطقة العربية ممن يسمونهم «بالمسلمين المتمولين» أي المصرفيين، والمحامين، ومديري فروع الولايات المتحدة في العالم، والشيء العجيب أن الرئيس جورج بوش قبل أن يطرح هذا السؤال لينتظر الإجابة كان عليه أن يجيب عليه، لقد كانت إجابة هؤلاء أنهم معادون لسياسة الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة منذ عقود طويلة وهي تقدم الدعم الكبير للاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية المحتلة في فلسطين، والجولان وجنوب لبنان (مزارع شبعا) على جميع الأصعدة، متهمة بذلك من يحاول أن يدافع عن وطنه وعرضه بالإرهاب، أهذا معنى الإرهاب في نظر الولايات المتحدة؟! وأخيراً ما أقدمت عليه من حربٍ وقتلٍ دولة هي عضو في الأمم المتحدة (العراق)، وتفكيك وتحطيم وتدمير بنيته وترويع شعب آمن، ذي تاريخ عريق بأحدث الطائرات والصواريخ الغبية والأسلحة والقنابل المحرمة... رغم معارضة معظم شعوب الدول الأوروبية والآسيوية والعربية، حتى هناك أصوات من داخل الولايات المتحدة ترفض هذه الحرب... من أجل ماذا؟ أهو من أجل الحرية والديموقراطية ونزع أسلحة الدمار الشامل، وتخليص الشعب العراقي من حاكم ديكتاتوري؟ أَمِن أجل ذلك أرسلت الولايات المتحدة ربع مليون جندي من أبنائها إلى بلدٍ يبعد عنها آلاف كيلو متر كي يدافعوا عن الشعب العراقي وتحريره من

ظلم صدام حسين؟ وتعريضهم لمخاطر الحروب وويلاتها، وإنفاق ثمانين مليار دولار دفعة أولى لتكاليف الحرب، وحفظ نفطه وديعة لرفاهية ورخاء هذا الشعب!... إنه لكرم أمريكي، بعد أن كان هذا الديكتاتور في يومٍ هو حليف لها يقاتل في حرب الخليج الأولى ضد إيران بسلاحٍ أمدتّه به الولايات المتحدة، لخشيتها من أن تقترب إيران من منابع النفط، وبعد أن قصف «حلبجة» بالسلاح الكيماوي، قالت يومها إن هذا شأن داخلي، وقامت الصحف الأمريكية بحملة ضد صدام حسين، فأرسل الرئيس الأمريكي حينها جورج بوش (الأب) قبل قيام حرب تحريد الكويت من الغزو العراقي بشهور معدودة بوفدٍ من الإدارة الأمريكية كي يعتذر له بما تقوم به الصحف الأمريكية.

هاهو الكابوي الأمريكي يلوح بالحبل للقطعان، ويسوقون (هكذا في النص الاصلي) الشعوب والأمم إلى ما يريدون هم لا ما تريده تلك الشعوب والأمم. هاهم أحفاد المكتشفين الأوائل... الغزاة الأوائل... يمضون إلى أهدافهم بالمنطق نفسه: أنت تقتل الآخر فأنت موجود!. فمارسوا الذبح والقتل المنفلت دون أن يسمعوا لتلك الأصوات التي تناشدهم من كل مكان من العالم ألا يندفعوا وراء اغراء القوة ، ولكن العنجهية والغرور الامريكي أبى الا أن يواصل تقدمه في حشد الجيوش كي يمارسوا الهواية القديمة الحديثة، القتل دون رحمة، تحركهم إلى ذلك الصهيونية العالمية من أجل تنفيذ مصالحها على الأرض. كل هذا من أجل إحلال الديموقراطية التي ينادون بها، ومن ثم تشكيل خارطة الوطن العربي من جديد على (مزاج) الدولة العبرية.

وقد كتب المؤرخ «آرثر شليزنجر» في صحيفة «لوس أنجليس تايمز» في 23 آذار/مارس 2003: أن الإستراتيجية الكبيرة لبوش

كانت «مشابهة بوضوح للسياسة نفسها التي استخدمتها اليابان الإمبريالية أيام اعتدت على بيرل هاربر، في يوم يلطخه العار»، كما قال الرئيس الأمريكي السابق «فرانكلين روزفلت». وأضاف «شليزنجر» أنه لا عجب أن موجة التعاطف العالمية التي احتضنت أمريكا بعد 11 أيلول/ سبتمبر، قد انتهت لتحل محلها موجة عالمية من كراهية الغطرسة الأمريكية والعسكرية الأمريكية والاعتقاد بأن بوش «أكثر تهديداً للسلام من صدام حسين بكثير».

إن المجتمع الأمريكي هش من الناحية الأخلاقية والأدبية والأمنية ومن الناحية المعنوية، وهو قابل للانهيار لأدنى هزة يتعرض لها، ولا يعرف حقيقة الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من المستشار الأمن القومي الأمريكي «زبينو برجينسكي» في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» الذي ذكر في كتابه «الفوضى» مدى التناقض الذي يميز نظرة العالم للولايات المتحدة ونظرة الأمريكيين أنفسهم لها حيث قال: «إن العالم قد أصيب بعدوى القيم والصور التي يفرضها الإعلام الأمريكي عليه وهو ما يسمى بالإمبريالية الثقافية، فهل حقاً تستحق الولايات المتحدة أن تكون مصدراً للقيم في العالم حتى وإن حازت على مفاتيح القوة الاقتصادية والعسكرية... ».

فبعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه، أصبحت الولايات المتحدة القوة الأولى في العالم، كان ذلك ميلاد ما سُمي بالـ «نظام العالمي الجديد»، ونهاية الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي.

يقول المعلق الأمريكي تشارلز كراوثامير المحسوب بين فريق المحافظين في أمريكا، في مقال نشره في جريدة «نيويورك تايمز» مطلع هذه السنة 2003: «الحقيقة أنه لم تتوفر في تاريخ العالم

لأية دولة السيطرة الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية التي تتمتع بها الولايات المتحدة الآن وذلك منذ زمن الإمبراطورية الرومانية».

إن بلداً كالولايات المتحدة يعيش ملامح ثقافية جديدة تسمى «ثقافة المخدرات» على اعتبار أن هذه السموم قد أصبحت نمط الهروب النفسي من المشاكل التي يعانيها الأمريكيون... والعائلة انهارت كمركز للمجتمع الأمريكي لاستفحال الإباحة الجنسية والشذوذ الذي أدى إلى استشراء «الإيدز» فضلاً عن الدعاية الهائلة للفساد الأخلاقي من خلال الإعلام المرئي كما علق المؤرخ الأمريكي «تيد هاير» على تورط الرئيس كلينتون في فضيحة مونيكا ليوينسكي، واستمرار تأييد الرأي العام الأمريكي له على الرغم من ذلك قائلاً: «إن أمة تقبل أن يقودها شخص على هذا القدر من الانحطاط الأخلاقي لا يمكن أن تستمر في تبوأ قيادة هذا العالم».

أهذه هي الديموقراطية والحرية التي يتشدقون بها؟، ويريدون تصديرها إلى خارج الولايات المتحدة وبالأخص إلى الدول العربية.

ونحاول في هذا الكتاب تسليط الضوء على الإرهاب الأمريكي ضد الشعوب، وأخذنا العراق نموذجاً للإرهاب الأمريكي من خلال معاناته من حربٍ عنيفة كان بدايتها تهور من الرئيس العراقي السابق صدام حسين، وحصار طويل لأكثر من اثنتي عشرة سنة أنهكت شعبه، ثم قيام أمريكا أخيراً باحتلال العراق في 2003، من أجل نهب ثرواته والهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، وحماية إسرائيل من خطر كان يهددها.

ربما يجد الأمريكي إجابة كافية على سؤاله في هذا الكتاب.

الأمبراطورية الأمريكية

البداية والنهاية

منصور عبد الحكيم (2005)

منصور عبد الحكيم كاتب ومحام مصري له عدة مؤلفات تعالج أحداث القيامة والنبوءات الخاصة باليوم الآخر. في هذا الكتاب يؤكد المؤلف على أن لأمريكا طموحات استعمارية، وأن من المهم دراسة تاريخ أمريكا في إبادة مجتمع وثقافة الهنود (الحمر) سكان أمريكا الأصليين. يؤكد الكاتب أيضاً على حتمية انهيار أمريكا سياسياً واجتماعياً وثقافياً.

﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائكة رُسَلاً أُوْلِى أَجْنِحَة مَّثْنَى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ (سورة فاطر الآية:1).

سبحانه وتعالى جل شأنه علت قدرته، فهو ملك الملوك الحي القيوم القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه وسلطانه وأشهد ان محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله.بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركنا على المحجة البيضاء صلى الله عليه وسلم.

أما بعد...

اتسمت الولايات المتحدة الأمريكية منذ نشأتها في أواخر القرن الثامن عشر من ثلاث عشرة ولاية ومساحتها نحو مليون كم2 بالسمة الإمبريالية الاستعمارية لشعوب وأراضي القارات الأخرى.

وبعد اكتمال عدد ولاياتها الخمسين في القرن التاسع عشر أصبحت إمبراطورية لا يستهان بها، فقد ورثت الإمبراطورية البريطانية التي أفل نجمها بعد الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن ظهور الإمبراطورية الأمريكية أمرا مستغربا، فقد بدأت مثل سابقاتها من الإمبراطوريات الأخرى على الغزو والاستيطان لأراضي الشعوب الأخرى والقضاء على حضارتها.بإهلاك السكان الأصليين لقارة أمريكا من الهنود الحمر في سابقة لا مثيل لها في التاريخ الإنساني!!

فمنذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وهو تاريخ الغزو البريطاني للقارة الأمريكية قامت بإرسال مواطنيها وهم شاهرون السلاح في وجه كل من يقف في طريق أطماعهم.

وكانت البداية هي إبادة السكان الأصليين باعتبارهم مخلوقات غير آدمية تشبه الآدميين، وتعاملوا معهم كما تعامل اليهود الصهاينة مع أصحاب الأرض الفلسطينيين حين اجتاحوا أراضيهم في عام 1948.وبعد ذلك نجح المستوطنون الإنجليز في تأسيس الإمبراطورية البريطانية وامتدادا لها.

ولهذا نجد التأييد الأمريكي لإسرائيل أمرا مألوفا لا غرابة فيه فكل من إسرائيل والولايات المتحدة قد جاءوا إلى أرض اعتبروها ملكا لهم وأبادوا شعوبها تحت شعار أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض!!.

ونحاول في هذا الكتاب بتوفيق الله وعونه إلقاء الضوء على تلك الأمبراطورية الرافعة شعار الحضارة والديمقراطية وتحرير العالم الثالث من خلال احتلاله وإبادته بالقنابل العنقودية وكل الأسلحة

التدميرية، كما فعلوا مع نحو 112 مليون هندي أحمر قديمها فلم يبق منهم سوى ربع مليون.

إن هلاك الأمم من سنن الله في كونه وأرضه، فقد أهلك الكثير من الإمبراطوريات.

ولن تكون الإمبراطورية الأمريكية أخر تلك الإمبراطوريات الهالكة...

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين﴾ (يونس الآية 13).

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ (ق الآية 36).

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ (الإسراءالآية: 16).

هكذا جاء ذكر هلاك الأمم السابقة في القرآن الكريم وهكذا يكون هلاك الأمم الحاضرة والقادمة إذا تحقق فيها ما جاء في آيات الله البينات، الظلم، والكفر وتكذيب الرسل وإشاعة الفساد والتعدي على الآخرين.

وقد تنبأ الكثيرون من الاقتصاديين بسقوط الإمبراطورية الأمريكية وأن الإمبراطورية التي تظهر أنها قوية تحتاج إلى مليار ونصف المليار دولار يوميا لتغطية العجز الاقتصادي. وإنه من المنتظر تراجع التعليم سنة 2020 م بأمريكا نتيجة نقص المعلمين والإداريين واتجاه المجتمع الأمريكي نحو الاقتصاد الخدمي.

وأيًا كانت أسباب السقوط لتلك الإمبراطورية فإن سقوطها أمر حتمي سوف نناقشه ونستعرض أسبابه بعد أستعراض أسباب القوة ومواطن الضعف في الأمم التي استولت عليها الإمبراطورية الأمريكية لتبني عليها امجادها.

ومن ثم فهذا الكتاب ليس كتابا وثائقيا أو سياسيا أو دينيا.وإنما هو كتاب يشمل الثلاثة مما، فهو رؤية وثائقية سياسية دينية لتلك الإمبراطورية التي قد تكون آخر الإمبراطوريات على الأرض.

وقد تساهم بشكل فعال وإيجابي في دمار الكرة الأرضية، وهم يسعون إلى تحقيق ذلك بجدية في الآونة الأخيرة بعد أن أصبحوا القوة العظمى الوحيدة في العالم ونسوا أو تناسوا أن الله من ورائهم محيط.

نسأل الله العظيم التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في أحضان كونداليزا وبدون خسائر في الأرواح

زهير واسيني (2006)

زهير واسيني كاتب مغربي يعمل في التليفزيون الإأيطالي. حصل على دكتوراه في الأدب من جامعة غرناطة في أسبانيا وهو يدرس العربية في جامعة روما. نشر العديد من المقالات في الجرائد الأسبانية و الايطالية والعربية وله مؤلفات عن المسرح المغربي (1992 بالأسبانية) وكتاب بعنوان قتل العربي (1998). كتابه هذا والذي أقتطفنا منه هذه المختارات يصف رحلته إلى أمريكا عقب أحتلال العراق سنه 2003 ويظهر غلاف الكتاب صورة فوتوغرافية لكوندوليزا رايس نصفها أسود والنصف الآخر أبيض. كأني بالمؤلف يقول أن هذه الوزيرة الأمريكية مثل بلدها فيها الأيجابي وفيها السلبي.

كان يوم سبت. في المساء تم توزيعنا على عائلات أمريكية استضافتنا للعشاء. كل مجموعة ذهبت مع أسرة. كانت تجربة رائعة حسب انطباعات الجميع فيما بعد، بالطبع الغاية هي التعرف على هذه الأسر عن قرب وبالتالي استشراف أسلوب الحياة الأمريكية.

في حدود الساعة السادسة أتت سيدة لتأخذني مع زميلي البولوني ماريك والمترجم المصري محمود انطلقنا في شوارع «سيراكوز» العريضة. وتوجهنا إلى بيت السيدة الموجود في ضواحي المدينة عند وصولنا استقبلتنا سيدة أخرى وكلبان وقط. كان الترحيب حارا من طرف الجميع رغم استئثار ماريك بكل حفاوة الكلبين الضخمين اللذين

هاجماه بمرح وهرج كبيرين بينما محمود وأنا اختبأنا وراء السيدتين اللتين فهمنا مدى «حسن علاقتنا» كعرب ومسلمين بالحيوانات.

جلسنا نتحدث بكثير من الود وقليل من الحرج المتبادل من طرف الجميع. بعد المقدمات العامة حول الطقس وانطباعتنا الأمريكية وأحاديث المجلات العادية في مثل هذه الحالات والتي أرفقناها بمشروبات قدمتاها لنا، انتقلنا إلى قاعة الأكل حيث تبادلنا أطراف الحديث ما بين طبق وآخر.

خلال تجاذبنا الكلام حول المواضيع المختلفة فهمت لماذا محمود كان يسألني منذ وصلنا: من الرجل؟ ومن المرأة؟ أنا عادة لا أبالي بنوعية العلاقة بين الأشخاص. الكل حر في العيش كما يريد. هذا ما يفسر اهتمامي الكبير وأنا أستمع إلى حديثهما عن المصاعب التي بواجهانها ومثليين آخرين في البحث عن حياة كريمة تجمعها أخبرتانا بأنهما قررتا الذهاب إلى كندا في الصيف ليتزوجا. القوانين الكندية تسمح بذلك. وبالرغم من كون هذا الزواج غير ذي قيمة بالنسبة للقوانين الأمريكية فإنهما قررتا الاحتفال ولو رمزيا لتجاوز قوانين تحد من حرية الأشخاص.

كوني قادماً من إيطاليا وكون ماريك كاثوليكياً جرنا للحديث عن مواقف الكنيسة في مثل هذه الحالات. خاصة مع البابا الحالي الذي قرر أن يعود بالدين المسيحي إلى القرون الوسطي. كانتا كاثوليكيتين وهو ما كان يفسر المرارة النابعة من كلامهما حيال دين يدعو إلى المحبة ولكنه في نفس الوقت يتصرف بحقد حيال الأشخاص المختلفين. على الأقل رسميا.

ما إن عدنا إلى الفندق حتى وجدنا خبر تجربتنا قد استشرى بين مجموعتنا. بالطبع ومثل العادة، الكل كان يكنت على اعتبار أن هذه التجربة التي كانت من نصيبنا ماريك وأنا أثارت قريحة الساخرين الذين لم يتوانوا في استعمال ذخيرتهم ضدنا، ولكن دائما بمرح وخفة روح. العقلية العربية لا يمكنها أن تفهم مثل هذا النوع من العلاقات وهو ما تجسد فعلا في بعض التعليقات القاسية.

حينما أعود بذاكرتي إلى ذلك العشاء، وإلى حسن الضيافة، وإلى أخلاق السيدتين النبيلتين أتساءل ما الذي يدفع المرء إلى الحكم على الآخرين من خلال ممارساتهم الجنسية؟ ما الذي يهمني أنا في خيارتهم؟ هل في حياتهم الخاصة ما يسيء إلى الآخرين؟ أعترف أنني لا أفهم.

قيمة الديمقراطيات تتجلى في مدى قدرتها على صيانة حقوق الأقليات.

اعتبارا بهذا المقياس، كثيرة هي الدول الديمقراطية التي يجب أن تراجع نفسها ونحن العرب؟ عذرا كنت أتكلم عن الدول الديمقراطية.

استيقظنا ذلك الصباح باكرا كالعادة. وكالعادة انتظرنا الزميل اللبناني والفلسطيني والعربي الإسرائيلي كانوا متميزين عن الآخرين بعلاقتهم مع الزمن. كانت علاقة رديئة. وكان علينا الانتظار والإستماع إلى شكاوي المنظمين. ولكم استمعت بالقفشات التي ترد مع وصولهم. فهم عادة ينسون المواعيد وكأن هناك اتفاقا فيما بينهم ولكن نسيان مواعيد الجلسات والمناقشات شيء ونسيان موعد مغادرة الطائرة شيء آخر. من هذه الناحية كانوا أبطالا في التعامل مع الأمور بهدوء وبدون

اكتراث. ربما لو كان فريق آخر من الصحفيين الآتين من دول أخرى لنشبت حرب المواعيد. ولكن لما كان الأمر متعلقا بنا نحن العرب فكنا نأخذ الأمر كجزء من لحظات التهريج التي كا نستفيد منها للضحك من عيوبنا.

على ذكر النسيان، كانت الزميلة الجزائرية مختصة في نسيان أمتعتها. بعد ان نكون راقبنا حقائبنا أكثر من مرة، تتذكر هي حقيبتها عند مشارف المطار. وبالتالي كانت تعود إلى الفندق مع أحد المرافقين، لتعود مرة أخرى ونحن نتهامس ونستفزها بالسؤال دوما، إن كانت نسيت شيئا. في البداية كانت تنزعج ولكن مع الزمن ألفت مزاحنا، فبدأت تشاركنا فيه، بل ربما كانت تتعمد نسيان أشيائها حتى نسلط عليها ألسنتنا. والظاهر أن المنظمين كانوا واعين بهذا، وهكذا فإن رحلتنا إلى المطار كانت تحدد أربع ساعات قبل إقلاع الطائرة. مما يعني في بعض الأحيان انتظارا كانت تخففه ملاحظات فوزي أو ضحكات عبدالله أو تصرفات محمد أوف أومان.

مرة أخطأ هذا الأخير، وعوض أن يقدم جواز سفره للشرطة، قدم لهم الدستور الأمريكي الذي سبق وأهدوه لنا وكان في حجم الجواز وبلون أحمر. من أهدى لنا الدستور كان يقصد إفهامنا أن ما نحمله يعتبر أهم قانون يجمع الأمريكيين، هي جملة نقاط بسيطة وواضحة مما يسهل ضمها في كتاب جيب ولكنه لم يكن يعرف بتاتا أن هناك من سيخلطه بأوراقه الثبوتية. الأمر الذي أعجب كثيرا مرافقينا، ففي تلك اللحظة أحسوا أننا مستعدون لخلط هويتنا بتلك الأمريكية المهمة كانت قد نجحت.

وأكيد أنهم كانوا يستمتعون وهم يروننا نتناقش بخصوص الدستور الأمريكي ومدى إمكانية تطبيقه في العالم العربي، بل منا من اقترح استعمال نفس المواد والفصول لإنشاء نص يجمعنا ويكون بداية فدرالية لعالمنا وإرهاصة لحلمنا المشترك: الولايات العربية المتحدة! كنا نضحك على هذه التخريجات ولكن في أعماقنا كان هناك إحساس بإن ما يجمعنا أكبر بكثير مما يفرقنا كعرب وأننا شعب له من المكونات ما يدفعه لكي يكون نقطة لقاء وقوة وليس بؤرة نزاعات ووهن. لنقل إننا في بعض اللحظات كنا نحس بنوع من الغيرة من الآخرين، أمريكيين أو أوروبيين، الذين يعملون على خلق تكتلات قوية بينما نحن مختصون في اختراع النزاعات الواهية والغبية.

وصلنا إلى «سالت ليك سيتي». الرحلة دامت أكثر من خمس ساعات مع توقف دام ساعة تقريبا بـ (ديترويت) استغلها عباس للقاء أخته والإتيان بما لذ وطاب من مأكولات شرقية. لقد استطاع الخروج والعودة بدون أن تكون هناك أي مراقبة، وتساءلنا حقا عن مدى فعالية الإجراءات الأمنية، خفنا على أنفسنا وضحكنا كثيرا على وضعنا في حالة سقوط الطائرة. الأيادي ستشير إلينا كمجموعة إرهابيين. ولا شك في هذه الحالة، فالاتفاق الغربي تام في هذا المجال. لقد أتينا من كل البلاد العربية وتحالفنا حقيقي ضد اسلوب العيش الأمريكي. والحمد الله أن عباس يفضل الفلافل على القنابل وهو ما اتضح لي فعلا وأنا ألتهم برفقة الآخرين تلك المأكولات الشرقية اللذيذة. أنهينا كل شيء قبل أن نركب الطائرة في اتجاه «سالت ليك سيتي» وذلك درءاً لأي شكوك قد تحوم حولنا. فقد تكون أخت عباس قد أخفت متفجرات في رغيف من الأرغفة أو حبة طعمية.

لا يهم، الأكيد أننا كعرب وبعد 11 سبتمبر أصبحنا نخشى العمليات الإرهابية أكثر من الآخرين. فمثلا نخاف سقوط الطائرة ليس لأننا سنموت بل لأن الكثيرين سيشكون في كوننا من قام بإسقاط الطائرة. وصدقوني بأن هذا ليس إحساسا جميلا.

أمام كل نقطة تفتيش في المطار كنا نقوم بالتكهن من سيكون «سعيد الحظ» الذي سيحظى بعملية «التنقيب» في ملابسه وفردتي حذائه وجوربيه وتحت إبطيه وبين فخديه... في أغلب الأحيان أكثرنا حظا كان زميلنا الفلسطيني ويليه بشكل مباشر عباس، الزميل اللبناني. كنا ضيوفا على الولايات المتحدة ولم يتم استدعاؤنا إلا بعد أن أطلعوا على كل صغيرة وكبيرة وكل شاردة وواردة ومع ذلك فإننا كل مرة كنا نمر فيها أمام شرطة الحدود كنا نرى كيف أن الجوازات العربية تثير الكثير من التاؤلات. لهذا السبب ربما فضل محمد البلوشي التنقل حاملا الدستور الأمريكي كذلك.

أنا شخصيا لم أؤاخذهم ورويت للجميع كيف أني في زيارة لأبي ظبي مع وفد من العسكريين الإيطاليين وفي إطار العمل أوقفني ضابط الحدود الإماراتي ليقوم بمراقبة صارمة لجوازي الإيطالي وهو ما لم يقم به مع أي من الجنود الذين رافقتهم في الطائرة. إذا كان العربي يعامل العربي بهذا الشكل فماذا تنتظر من الأجنبي؟

ولكن كل هذه الأمور لا تقارن مع ما حكاه لي فوزي. فبعد وصوله إلى الولايات المتحدة رأيته يبحث بكل الوسائل عن إمكانية الاتصال بوالدته. فرحلته في الطائرة دامت أكثر من اللازم. كان يريد مكالمتها لكي يطمئنها.

يجب أن أكلمها بسرعة. فهي منذ أن عملت بمجيئي للولايات المتحدة ملأتها الهواجس والوساوس. ألحت علي أكثر من مرة بعدم الذهاب. فهي مقتنعة بأن دعوتنا هي مجرد فخ لكي يضعونا في سجن غوانتانامو...

كلما رأينا أحدنا يقترب او يكلم أمريكية كنا نعتبر ذلك بداية لحوار حضارات حقيقي. خاصة حينما يتطور الكلام إلى نظرات إغراء ومحاولة لفك الحصار عن تلك الأفكار المسبقة المستشرية عن الرجل العربي. أعتقد أنه في هذه الحالة فشلت مهمتنا فشلا ذريعا، لقد رسخنا في أذهان البعض بأن الرجل العربي يفقد عقله أمام الشعر الأشقر. لا أرى من عيب في ذلك بل ربما كان الطريق الأنسب لإنهاء كل الحروب. ماذا لو كانت مصائب بن لادن كلها بسبب شقراء أمريكية؟ هناك إمكانية كبيرة بأن يكون الأمر كذلك. ما دام ما قام ويقوم به لا يمكن أن يوجد له من تفسير عقلي أو منطقي.

نحن بالعكس، لم نر من وازع في تعاملنا مع شقراوات وغير شقراوات البلد المضيف. كانت لحظات ممتعة تفصل تلك الجلسات الطويلة التي كانت تأخذنا إلى عالم مركب. كل المشاكل كانت تنتهي أمام عيني امرأة أجمل حوار هو ذاك الذي تتبادله الأعين المتواطئة على صناعة أجمل عالم. نحن كنا نعشق هذا النوع من حوار الحضارات. أفضل حوار على الإطلاق.

المشكلة الوحيدة هو أنه خلال لقاءاتنا الجادة مع الشخصيات التي كنا نناقشها لم يكونوا ليفهموا ضحكاتنا وأسبابها كلما تحدثوا هم عن «حوار الحضارات» فهذه الجملة كانت لبست معنى آخر بالنسبة لنا.

أحدنا- ولن أذكر اسمه حتى لا أفضحه - وصل إلى حد كبير من «المشاغبة» حينما سألته فتاة لحظة أنس عن الخاتم في أصبعه والذي حاول، ولكن بدون جدوى، نزعه حتى لا تقر بعضهن من رجل متزوج. أتعرفون بماذا أجابها:

هذا الخاتم يلبسه كل الصحفيين في بلادي. حتى تتعرف السلطات على هويتهم.

المشكلة أن الشقراء صدقته، أو ربما أرادت تصديقه من أجل الاستمرار في «حوار الحضارات».

على العكس، «سيراكوز»، هذه المرة لم نجد أحدا في انتظارنا. بعضنا أخذ ذلك بمقاييس عربية فاعتبرها ممن باب قلة الأدب. الأرجح انهم يحاولون ألا يضفوا أي صبغة رسمية على زيارة مجموعة من الصحفيين العرب. كل شيء عادي. لقد أتينا لكي نعرف النظام الأمريكي من الداخل وبالنسبة لهم، هم الذين تعودوا على الوفود القادمة من كل مكان، فإن مقدمنا لم يكن يعني أي شيء فريد حتى يخصصوا له استقبالا مختلفا عما يقومون به مع الوفود الأخرى. الاستقبال الوحيد هو ذلك الذي يقوم به المجلس، والذي يقع مقره في مبنى كبير يشبه إلى حد بعيد الكونغرس بواشنطن.وجدناه في حالة ترميم وهو ما يعني الدخول من أبواب غير تلك العادية. بحثنا نحن عمن سيستقبلنا. في النهاية، وبعد تجوال طويل في المبنى الفارغ ذلك الصباح، أعتقد أنه كان يوم عطلة، إذا بشابة شقراء تسألنا إن كنا وفد الصحفيين العرب وبالتالي تدخلنا إلى قاعة كبيرة وتطلب منا الانتظار. بعد لحظة قصيرة دخلت سيدة في السبعينات وقدمت

نفسها، إنها نائبة رئيس المجلس. رحبت بنا بالجمل إياها التي تقال في مناسبات مثل هذه وأنهت كلامها بعد أن كان نصف الوفد يغط في نوم عميق. تكلف فوزي بالرد عليها بكلمات تليق بالمقام حتى وان ملأها بجمل شكر عن حرارة الترحاب وحفاوة الاستقبال الشيء الذي استقبلتنا به.

رحلاتي في العالم

نوال السعدواي (2006)

نوال السعدواي كاتبة مصرية شهيرة تتناول في معظم مؤلفاتها قضايا المرأة وأوضاعها في مصر والعالم. لها عدة مؤلفات روائية وكتابها هذا جزء من مؤلفاتها التي تتناول فيها سيرتها الذاتية.

عشت في «مانهاتن» في قلب نيويورك. مكانى المفضل دائما هو في قلب الأشياء. أحس نبض الحياة في تدفقها. واذا كانت «مانهاتن» هي قلب أمريكا النابض فان «رالي» كانت القدم، أوقاع القدم، وذكرها عندي كالحلم البغيض. كالقرية المشوهة المتوارثة من قرى العصور الوسطى رغم الابنية الحديثة، والشوارع المرصوفة شبه المهجورة وردهات الجامعة ذات الكآبة.

لكن هنا في «مانهاتن» كل شيء يتحرك بحيوية. والناس خطواتهم سريعة. وفي حي «جرينتش» يجلس الناس على المقاهي فوق الارصفة كأنها باريس. يأكلون ويشربون ويتحدثون. والشباب يجلسون على العشب في ميدان واشنطن قرب جامعة نيويورك. مجموعة تعزف على الجيتار، تغني وترقص. والناس يلتفون حولها ويغنون. وتحت الاشجار على الدكك الخشبية جلس بعض العجائز ومن حولهم أطفال يلعبون.

في الطرف الآخر من الميدان حلقة من الشباب يلتفون حول شاب وقف على شيء عالي وأخذ يخطب. أنه «كي مارتن». كان يلوح يديه في الهواء غاضبا قائلا: «مالكوم إكس قتلوه في قلب أمريكا كما قتلوا لومومبا في افريقيا! لماذا لا نكف ايدينا عن آسيا وافريقيا؟ ألا

نوقف هذا الخداع؟ ألا نوقف هذه الأسلحة المتنكرة داخل علب الطعام والمعونات الأمريكية!».

واقترب مني شاب صغير، ناولني مجلة سوداء كتب عليها بخط أبيض عريض: البارتزان، مجلة جمعية الشاب ضد الحرب والفاشست. وعلى صفحات المجلة صور لجنود صرعى في فيتنام، أشلاء ممزقة تختلط فيها أجساد الأمريكيين بالفيتناميين.

وفي جامعة كولومبيا تعرفت على زميلة لي اسمها مايون، كانت عضوا في الجامعة تنظم المظاهرات ضد الحرب في فيتنام. طويلة نحيفة وشعرها رمادي قصير. عيناها زرقاوان واسعتان لامعتان. وما أن تنتهي المحاضرات حتى تدور على الزملاء و الزميلاء توزع عليهم المنشورات والصور ضد حرب فيتنام.

وفي عطلة نهاية الأسبوع نذهب معا الى السينما، أو المسرح، أو نلعب التنس في النادي. وفي المظاهرات نرفع اللافتات معا ونهتف مع الشباب: أوقفوا الحرب في فيتنام.

في احدى المظاهرات رأيت ثلاثة من رجال البوليس يحوطون شابا أسود طويلا. ورأيت ماريون تندفع نحوهم وتحاول انتزاع الشاب منهم وهي تضربهم بقدمها بالشلوت. وتجمع الشباب حول رجال البوليس يضربونهم بالأقدام. وانطلقت الصفارات من كل مكان وهجمت علينا السيارات المسلحة ووجدت يد ماريون في يدي ونحن نجري لنهرب داخل أحد البيوت، وصوت الصفارات يدوي مع صوت الهتافات: يسقط جونسون!

ومن وراء الجدار حيث اختبأنا كان قلبي يدق بعنف وصدري يعلو ويهبط في أنفاس لاهثة متقطعة، وتعود الى ذاكرتي صورتي منذ خمسة عشر عاما، وصدرى يلهب وقلبي يدق، وأنا مختبئة وراء الجدار وطلقات الرصاص تدوي مع هتافات الطلبة: يسقط الملك!

وفي يوم آخر أخذتني ماريون الى اجتماع كبير تحدث فيه الدكتور «ستوتن ليند» وهو أستاذ أمريكي بجامعة «ييل» سحبوا منه جواز سفره لأنه ذهب الى فيتنام، قدمتني له ماريون قائلة: هي زميلة معي في جامعة كولومبيا وطبيبة مصرية. وأذكر أن ستوتن ليند قال لي يومها إن مشكلة فلسطين لا تقل خطورة عن مشكلة فيتنام لكن القوى الصهيونية في أمريكا تملك البنوك واجهزة الإعلام، وقالت له: ولماذا لا تذهب في رحلة لتقصى الحقائق بالشرق الأوسط كما ذهبت الى فيتنام. وضحك قائلا: حين أسترد من الحكومة جواز سفري.

طرف الخطاب يطل من وراء الزجاج داخل صندوق البريد. أجمل منظر في أمريكا. أجمل من تمثال الحرية في عرض المحيط، وأعظم من الأفينيو الخامس تطل عليه ناطحات السحاب، ومنتزه روكفلر الشهيرفي قلب نيويورك حيث النافورات ذات الألوان والزهور والناس من كل العالم، والموسيقى والرقصات العجيبة فوق قباقيب التزحلق.

طرف الخطاب تلمحه عيناي داخل الصندوق، وطابع البريد عليه صورة الهرم وكلمة مصر، وفوق المظروف اسمي بحروف كبيرة مستديرة، وحركة الأصابع النحيلة حول القلم، في غرفة مكتبنا المشتركة في الشقة الصغيرة في أول شارع الهرم.

في رسالة طويلة قال إنه اشترى لمبة مكتب جديد. وقرأ بعض كتب لم يقرأها من قبل وأن أبنتنا بصحة جيدة، وتذهب الى المدرسة كل صباح، وقبل أن تنام يحكي لها قصة جميلة.

أضع الرسالة تحت وسادتي، وأفتح عيني بالليل وأعيد قراءتها. وفي الصباح أضعها في الحقيبة مع أوراقي وكتبي. وأثناء الغداء أمضغ الطعام ببطء وأقرأ الرسالة.

وفي الليل تحت ضوء اللمبة أجلس في سريري تحت الأغطية وأقرأها وعلى الجدار فوق مكتبي تتدلى نتيجة عام 1966 بالأيام والشهور وأشطب بالقلم قبل أن أنام على اليوم الذي انتهى، وأعد الأيام الباقية.

ثم أطفئ النور وأضع رأسي على الوسادة. وأحس النبض تحت أذني كأنه قلبي. وحركة ناعمة تضرب جدران بطني كأذرع دقيقة من القطيفة. ترى متى يرى النور؟.

على باب الكلية تقدم نحوي أحد الطلبة العرب اسمه «سعدون». كان يوزع بيانا مطبوعا. وقال لي: ستكون المظاهرة يوم الخميس القادم ولابد أن تشتركي.

البيان بتوقيع الدكتور محمد المهدي،الأمين العام للجمعية العاملة لاصلاح العلاقات العربية الأمريكية وجاء البيان هكذا بالحرف الواحد:

بمناسبة يوم وعد بلفور المشئوم قررت الجمعية العاملة لاصلاح العلاقات العربية الأمريكية القيام بمظاهرة سلمية يوم الخميس 1965/11/4 من الساعة العاشرة صباحا الى الواحدة بعد الظهر.

يجتمع المتظاهرون في العاشرة صباحا أمام بناية الأمم المتحدة. وبعدئذ تتحرك «مسيرة السلام» حيث يحمل المتظاهرون اللافتات التي تدعو الى السلام في الشرق الأوسط عن طريق اعادة اليهود الى أوطانهم الأولى أو فتح أبواب الهجرة لادخال مليون يهودي اسرائيلي الى أمريكا الشمالية.

والغاية من هذه المظاهرة في يوم وعد بلفور هي القول بأن ذلك الوعد المشئوم أدى الى المآسي في الشرق الأوسط ونحن نريد ازالة تلك المآسي واحلال السلام الى تلك الربوع والى البلاد المقدسة.

وستدفع الجمعية مبلغ دولارين في الساعة لكل من يشترك في المظاهرة، وهو مبلغ ضئيل للغاية من تقديمه التعويض عن جزء من الوقت الذي تصرفوه.

لأول مرة في حياتي أسمع عن مظاهرة مدفوعة الأجر.

في المظاهرة في بلادنا كنت أسمع طلقات الرصاص وأجساد الطلبة تسقط. والدم يسيل في الشارع وفوهات البنادق تطل من سيارت البوليس. وتلاميذ تختطفهم العرباتالمصفحة وتبتلعهم السجون.

وقلت لنفسي، كم دولارا تساوي ثلاثة ليترات من الدم يسال على الطريق؟

وكم دولارا يمكن أن تدفع من أجل تلميذ يصبح شهيدا؟ وكم يمكن أن يكون ثمن حياتي اذا انطلقت رصاصة في جزء من الثانية؟

وجاء يوم الخميس ولم أذهب. لا أحد يمكن أن يدفع ثمن جزء الثانية يساوي حياتي. وحياتي كلها أدفعها بطلقة رصاص واحدة تطير كرامتي وكرامة الوطن.

في مستشفى «سلون» المجاور لجامعة كولومبيا ذهبت لمقابلة الدكتور «تود» فحصني بدقة ثم قال: أتوقع أن تكوون الولادة خلال أسبوع واحد. كنا في أوائل ديسمبر والثلوج البيضاء بدأت تلمع فوق النوافذ والشوارع وابتسم قائلا: انت محظوظة فموعد الولادة يجيء مع اجازة الكريسماس والعام الجديد.

واتفقت ماريون معي على أن نذهب معا لشراء ملابس للطفل القادم من شارع برودواي. وصاحت الزميلات الأمريكيات في الجامعة نحن لا نشتري ملابس الطفل إلا بعد أن يولد. ودهشت لماذا. وعرفت أن بعض الخرافات لا تزال تعيش في أمريكا. شراء ملابس الطفل قبل ولادته فأل سيء قد يعرضه للموت قبل أن يولد أثناء الولادة. لكني رأيت أمي تشتري ملابس الطفل قبل أن يولد.وقد ولدت تسعة أولاد دون أن يموت أحدهم. وجدتي أيضا لم تكن تؤمن بهذه الخرافة.

وقالت لي ماريون: هولاء النساء الأمريكيات لازلن متخلفات.

وسألتها: وأنت؟ ألست أمريكية يا ماريون؟

قالت: نعم، ولكني حررت نفسي من الخزعبلات وأولها كراهية البشرة السوداء.

وقلت وثانيها؟

قالت تبيض الوجه بالمساحيق.

بسيطة وطبيعية تتدفق بالحيوية. تنتبه للمحاضرات العلمية بمثل ما تتحمس للمظاهرات السياسية. بشرتها صافية بلا مساحيق وشعرها حر تتركه للهواء والمطر وتجري معنا في الشارع كالأطفال.

لم أشعر معها بالغربة، وكأننا ولدنا في بلد واحد. وعشنا طفولة واحدة. الزميلات الأمريكيات الأخريات تفصلني عنهن مسافة كبيرة وأشعر بينهن بالغربة. لا تعرفن شيئا عن العالم خارج أمريكا لا فلسطين ولا فيتنام ولا اي بلد آخر في آسيا أو أفريقيا. وجوهن مدهونة بالمساحيق، فوق الجفون، وعلى الرموش، والخدود...

sharif mahmoud

شيكاغو

علاء الأسواني (2007)

علاء الأسواني روائي مصري ذاعت شهرته بعد نشره رواية يعقوبيان والتي حققت مبيعات كبيرة وترجمت إلى عدة لغات أجنبية وتم تحويلها إلى فيلم مشهور تحت نفس العنوان. عدا روايته هذه والتي تدور كل أحداثها في هذه المدينة الأمريكية نشر الأسواني كتابه نيران صديقة.

جامعة إلينوي من أكبر الجامعات في الولايات المتحدة وتنقسم إلى قسمين: المركز الطبي في غرب شيكاجو الذي يضم الكليات الطبية، أما الكليات غير الطبية فتقع في وسط المدينة. بدأ المركز الطبي ففي عام 1890 بإمكانات ضئيلة، ثم تطور واتسع بسرعة فائقة، ككل شيء في شيكاجو، حتى أصبح مدينة شاسعة مستقلة، مساحتها 30 أكرى (نحو مليون وثلث قدم مربع)، وتشغل أكثر من مائة مبنى: تضم كليات الطب والصيدلة والأسنان والتمريض وفروع المكتبة والإدارة، بالإضافة إلى دور سينما ومسارح ونواد رياضية ومحالٍّ تجارية عملاقة ومواصلات داخلية تنقل الطلاب مجاناً على مدى 24 ساعة... كلية طب إلينوى هي الكبرى في العالم، وتضم واحدا من اعرق أقسام الهيستولوجي... مشيداً من خمسة طوابق على الطراز الحديث، تحوطه حديقة واسعة يتوسطها تمثال نصفي من البرونز لرجل خمسيني يبدو محدقا في الفضاء بعينين واسعتين حالمتين مرهقتين وعلى قاعدة التمثال نقشت العبارة التالية بحروف كبيرة:

«العالم الإيطالي العظيم مارشيللو مالبيجى(1628-1694)... مؤسس علم الهيستولوجي...هو الذي بدأ...ونحن هنا لنتم العمل».

هذه النبرة المقاتلة تمثل روح القسم... فما إن تجتاز البوابة الزجاجية حتى تشعر بأنك تركت الدنيا بمشاغلها وضوضائها وصرت في محراب العلم: المكان غارق في الهدوء، وثمة موسيقى خافتة خفيفة تنبعث من الإذاعة الداخلية. الإضاءة واحدة محسوبة بحيث تريح النظر ولا تشتت الانتباه ولاتنم عن الزمن من الخارج، عشرات الباحثين والطلاب لا يكفون عن الحركة والعمل.

الهيتسولوجي كلمة لاتينية معناها «علم الأنسجة»: العلم الذي يستعمل الميكروسكوب في دراسة الأنسجة الحية، وهو يشكل أساس الطب لأن اكتشاف العلاج لأي مرض يبدأ دائما بدراسة الأنسجة في حالتها الطبيعية... وبالرغم من الأهمية الفائقة للهيستولوجي فإن شعبيته قليلة وعائدة المالى متواضع... باحث الهيستولوجي غالبا طبيب، اختار أن يترك تخصصات الثروة والمجد (مثل الجراحة والنساء والتوليد) ليقضي عمره في معمل مغلق بارد، منكبًا على الميكروسكوب لساعات طويلة، وكل أمله أن يكتشف عنصرا مجهولا لخلية متناهية في الصغر لن يسمع بها الناس أبدا. علماء الهيستولوجي جنود مجهولون يضحون بالمال والشهرة من أجل العلم، وهم يكتسبون مع الزمن سمات أصحاب الحرف اليدوية (مثل النجارين والنحاتين وغازلي الخوص): الجلسة الراسخة المستقرة، أمتلاء النصف الأسفل للجسم، قلة الكلام وقوة الملاحظة والنظرة المدققة المتفحصة، الصبر والهدوء، وصفاء الذهن والقدرة العالمية

على التركيز والتأمل... يضم القسم خمسة أساتذة تتراوح أعمارهم بين الخمسين والسبعين، وصل كل منهم إلى منصبه بعد سنوات من العمل الشاق الدءوب، يومهم ضيق جدا، وجداولهم مشغولة لأسابيع قادمة، وأمامهم أبحاث علمية لا بد من إنجازها، تجعلهم يقضون وقتهم كله في المعامل، وهم في غير عطلة نهاية الأسبوع، قلما يجدون الفرصة حتى لتبادل الأحاديث، وفي اجتماع مجلس القسم الأسبوعي عادة ما يتفقون على القرارات بسرعة حرصا على الوقت. من هنا يعتبر ما حدث يوم الثلاثاء الماضي شيئا استثنائيا، فقد انعقد مجلس القسم، وجلس الأساتذة بترتيبهم الذي لا يتغير: الدكتور بيل فريدمان رئيس القسم في صدارة المائدة، بصلعته الفسيحة ووجهه الأبيض وملامحه الوديعة التي تجعله أشبه برب أسرة شريف مكافح، إلى يمينه الأستاذان الأمريكيان من أصل مصري: رأفت ثابت ومحمد صلاح... ثم أستاذ الإحصاء جون جراهام بجسده البدين ولحيته البيضاء الخفيفة وشعره الأشيب المشعث دائما، ونظارته الطبية الصغيرة المستديرة تلمع من خلفها نظرته الذكية المتشككة، مع ابتسامة خفيفة ساخرة وغليون طويل لا يفارق فمه حتى وهو مطفأ الآن لأن التدخين ممنوع في الاجتماع.... جراهام يشبه إلى حد كبير الكاتب الامريكي إرنست همنجواي، مما يثير دائما تعليقات ضاحكة من زملائه... من الناحية الأخرى إلى المائدة يجلس جورج مايكل، يسمونه «اليانكي» لأن كل ما فيه يحمل الطابع الأمريكي القح: عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر المتدلي على كتفه وملابسه الكاجوال، جسده القوي العريض وعضلاته المنتفخة المفتولة من أثر انتظامه الصارم في التمرينات

الرياضية، عاداته في مد قدميه في وجه من يحدثه، ولحس أصابعه أثناء الطعام، وعلبة المياه الغازية التي لا تفارق يده... يرشف منها بين الحين والحين جرعة صغيرة، ثم يهز كتفيه ويتكلم بلكنة أهل تكساس حيث نشأ قبل مجيئه إلى شيكاجو. بقى أكبر الأستاتذة سنا وأكثرهم إنجازا، دنيس بيكر، الغارق في صمته. ثيابه بسيطة نظيفة، ودائما مجعدة قليلا ربما لأنه لا يجد الوقت الكافي لكيها بإتقان. قامته طويلة، وجسده العجوز مشدود وصلب، صلعته كاملة سقط عنها شعره كله وعيناه واسعتان تشعان بنظرة نفاذة يشتد لمعانها أحيانا حتى تتجلى فيها سطوة غامضة... زملاء دنيس بيكر يداعبونه بقولهم إنه يستعمل الكلام كما يستعمل قائد السيارة آلة التنبيه، فقط عندما لا يكون هناك مفر من ذلك!.

مضى الاجتماع بطريقة عادية، وقبل أن ينصرف الأساتذة، استبقاهم الرئيس فريدمان واحمر وجهه كعادته عندما يكون لديه ما يقوله، ثم نظر في الأوراق أمامه وقال بصوت هادئ:

أود أن استشيركم في موضوع... تعرفون أن مكتب البعثات قد اتفق مع القسم على إرسال طلاب مصريين للحصول على الدكتوراه في الهيستولوجي... لدينا الآن ثلاثة طلاب: طارق حسيب... شيماء محمدي... وأحمد دنانة... هذا الأسبوع بعث مكتب البعثات بأوراق طالب مختلف عن الآخرين، أولا: لأنه يريد الحصول على الماجستير وليس الدكتوراه... وثانيا: لأنه لا يعمل في الجامعة...لقد اندهشت في البداية، لم أفهم لماذا يريد أن يحصل على ماجستير في الهيستولوجي إن كان لا يعمل في بالبحث العلمي أو التدريس؟!... اتصلت هذا

الصباح بالمسئولة عن مكتب البعثات في واشنطن، فأخبرتني أن هذا الطالب قد استُبعد من التعيين في جامعة القاهرة لأسباب سياسية، وان حصوله على الماجستير سيدعم موقفه في القضية التي رفعها على الجامعة القاهرة... وقد اطلعت على ملف الطالب فوجدته مشجعا: درجاته عالية في اختبارات الإنجليزية والتسجيل العام، وكما تعرفون، فإن مكتب البعثات سيتكفل بمصاريف الدراسة... أريد أن أعرف رأيكم... هل نقبل هذا الطالب؟... أماكن الدراسات العليا عندنا محدودة كما تعرفون... سأستمع إليكم، واذا لم نتفق سأطرح الموضوع على التصويت.

أجال فريدمان النظر في الحاضرين وكان جورج مايكل (اليانكي) أول من طلب الكلمة... امتص رشفة من علبة البيبسي وقال:

- أنا لا أعترض على قبول الطلبة المصريين... لكنني فقط أذكركم بأننا في واحد من أهم أقسام الهيستولوجي في العالم... فرصة التعلم هنا نادرة وثمينة، ولا يجب أن نبددها لمجرد أن طالبا من إفريقيا يريد أن يكسب قضية ضد حكومته... أظن التعليم عندنا له وظيفة أكبر... إن المكان الذي سيحصل عليه هذا الطالب يحتاج إليه باحث حقيقي ليتعلم جيدا ويكتشف أشياء جديدة في العلم... أنا أرفض قبول هذا الطالب.

- حسنا...هذا رأيك يا مايكل... ماذا عن الباقين؟...

هكذا سأل الرئيس مبتسما، فأشار إليه رأفت ثابت ثم بدأ الحديث بلهجة من يحكي طرفة:

-...باعتباري كنت مصريا في يوم من الأيام، أعرف جيدا كيف يفكر المصريون... إنهم لا يتعلمون من أجل العلم... وهم يحصلون على الماجستير أو الدكتوراه ليس من أجل البحث العلمي، وإنما من أجل الحصول على ترقية أو عقد مُجْزٍ في بلاد الخليج...هذا الطالب سيعلق شهادة الماجستير على عيادته في القاهرة ليقنع المرضى بأنه قادر على شفائهم...

تطلع إليه فريدمان مندهشا وقال:

- كيف يسمحون بذلك في مصر؟ إن الهيستولوجي علم أكاديمي لا علاقة له إطلاقا بعلاج الناس.

أطلق رأفت ضحكة ساخرة وقال:

- أنت لا تعرف مصر يا بيل... كل شيء هناك مباح، والناس لا يعرفون معنى الهيستولوجي أساسا...

- ألست تبالغ قليلا يا رأفت؟...

هكذا سأل فريدمان بصوت خافت، فتدخل صلاح قائلا:

- طبعا يبالغ...

التفت إليه رأفت وقال بحدة:

-أنت بالذات تعلم أنني لا أبالغ!

سعوديون في أمريكا

تركي الدخيل (2007)

تركي الدخيل إعلامي سعودي ذو شهرة كبيرة، له برنامج «إضاءات» الذي تبثه -قناة العربية-القناة الأخبارية التي تعمل على مدى 24 ساعة والتي يشاهدها الملايين في جميع أنحاء العالم. لتركي الدخيل دائماً السبق الصحفي في تغطية الموضوعات الشائكة في العالم العربي والشرق الأوسط. حصل على لقب أحسن أعلامي، وذلك في استفتاء عام أجرته جريدة الرياض في عام 2009. وكذلك حصل برنامجه التليفزيوني على جائزة أحسن برنامج في مسابقة عقدتها الدورة السادسة للإعلام العربي عام 2009. وكذلك أدرجت مجلة Arabian Business Magazine اسمه ضمن قائمة من مائة شخصية عربية هي الأكثر شهرة ونفوذاً في العالم.

خيارت الغربة

تبدوالخيارات في الغربة أقل توافراً منها في الوطن وبالذات لجهة معرفة الناس، ذلك لأنك في وطنك تأخذ مداك الطبيعي في النشأة بين الناس والتعرف عليهم، ثم تختار مَن يتناسب مع طباعك، عسى أن يكون صديقاً.

أما في الغربة. وبخاصة في البدايات، فأنت لا تختار دائماً...

وإذا كنت محظوظاً، فأنت تجد خياراً وحيداً، فإما أن تقبله على علاّته، وإما أن تختار الوحدة.

قد تُجّرب الوحدة مرة أو اثنتين لكنك ستكتشف أنه من الصعب الجمع بين ألمين قاهرين: ألم الغربة، وألم الوحدة!.

لكن، مع ذلك فإن في الغربة ميزة عظيمة هي إظهار المعادن... فالغربة تحرقها، تُجَمّرها، فيزداد لمعان الذهب، ويبهت ما سواه «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

ملمح ذكوري

من أجل ذلك أحسبُ أن الآباء الأوائل، قالوا: إنك لا تعرف الرجال إلا إذا رافقتهم في سفر.

ثمة ملمح ذُكوري هنا، يبدو حاضراً، مثل ملامح كثيرة في ثقافتنا.

الصحيح أنك لا تكتشف معادن البشر، ذكوراً أو إناثاً، مثلما يحصل أثناء السفر.

فالأمر إذن ليس مقتصراً على الرجال فقط!

البشرُهنا، هم المعادل الموضوعي للإنسانية: أعظم الأشياء في هذه الحياة...إن شاؤوا هم أن يكونوا كذلك.

أقول ذلك لأن المرء عندما يأتي إلى مجتمع جديد، فإنه في الغالب يكون منكفئاً على ذاته في البداية، ويحتاج إلى طرف آخر ليبادره ويذيب جليد خجله، وإلا فمعظم المجتمعات الغربية - وبخاصة

في الولايات المتحدة- أكثرانفتاحاً من المجتمعات العربية لإنشاء علاقات سطحية مبدئياً، الفارق هنا أن الاستعداد للذهاب بالعلاقة بعيداً وعميقاً أصعب في الغرب منه في مجتمعاتنا.

إذاً هناك مجتمع منفتح لعلاقات سطحية، وتحتاج العلاقة العميقة إلى جهد أكبر، والعكس في المجتمع العربي.

مجلة «ماجد»... والمدن الصغيرة

عندما قدمت إلى بلدتي الأمريكية الصغيرة الحالمة، لم أكن أعرف فيها أي عربي.

المدينة الصغيرة، EUGENE. الحقُّ أن ذلك كان أحد أسباب اختيار «يوجين»

أو القرية الجامعية، الواقعة في طرف أمريكا الشمالي الغربي، مكاناً لإقامتي في الولايات المتحدة، للتعلم وخوض غمارالتجربة الحياتية.

وُلدتُ وعشتُ معظم حياتي في الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، أكبر مدن البلاد في المساحة وعدد السكان.

بل إن الرياض هي أكبر مدينة في الشرق الأوسط من حيث المساحة، وهي ثالث أو رابع أكبر مدينة في العالم حجماً واتساعاً، ولا أبالغ عندما أقول إن الانتقال من شرقها إلى غربها أو من شمالها إلى جنوبها شبيه بالسفر، لأنك تقطع مساحة يمكنك فيها أن تقصر صلاتك!

كما زرتُ كثيراً مدناً مزدحمة تغص بالبشر وتكتض بالازدحام والثلوث، على فارق بينهما، كالقاهرة، والدار البيضاء، ولندن، ونيويورك.

وأذكر أني عندما كنت صبياً، كنت أدمن على قراءة مجلة «ماجد» للأطفال الصادرة من أبو ظبي، وكم كنت أنتظر وصول العدد إلى الرياض بفارغ الصبر، كانت عادة سائغة لي، الانتظار عند البائع ساعات، حتى وصول موزع المجلة.

كان إقبال سيارة التوزيع إلى الدكان القريب من منزلنا، بمثابة بُشرى تُزف لي، فقد اقترب موعد الظفر بمجلتي الأثيرة.

كنتُ أقرأ المجلة من الغلاف إلى الغلاف، ولم أتخلف عن اقتناء عدد واحد منها، بل لم أكن أتخلى عن عدد اقتنيته من مجلة «ماجد»، إلا تحت ضغوط متوالية من والدتي -حفظها الله- من أجل إتاحة مساحة للتحرك في غرفتي.

الباب المُفَضل

كانت أبواب المجلة تشكل لي زاداً أقتات عليه طيلة أيام الأسبوع، لكن أحد أبوابها طالما استوقفني كثيراً، ذلكم هو باب «هواة التعارف».

لم أكن مأخوذاً بفكرة التعارف لذاتها، بل كنت أتأمل الوجوه في الصور المنشورة، وأحاول تخيل حياة كل شخص: كيف يعيش؟ وبماذا يفكر؟ وأين يسكن؟ وكيف ومتى ينام؟

ثم تنتهي مسرحية التخيل الشخصية تلك، بأن أحاول أن أربط بين ملامح الصورة والأماكن التي يقطنها المتعارفون.

تابعت كثيراً سعوديين يعيشون في مدن صغيرة، وعبثاً حاولت مخيلتي الطفولية، تلامس متعة في حياتهم!

لذلك كنت أقول بشكل سافر في داخلي: كيف يمكن العيش في مكان غير المدن السعودية الثلاث الكبرى، الرياض، جدة، والدمام؟!.

إنها صورٌ نمطية جاهزة، تنطبق على ما يمكن أن أسميه التصور الذهني الوحيد للمتعة.

إن إشكالية الصور النمطية، والتصور الوحيد للمتعة، أنها تقيد المطلق.

إن الإنسان المطلق في هذه الحياة يحاول إبتكار ما يحتاج إليه، وحول الاأحتياجات يتلمس مساحات من المتعة على ضفاف حياته البسيطة... لو كنتُ أعقل ذلك!.

عندما اخترت مدينة يوجين EUGENE في ولاية أوريجن Oregon بعد مشاورات وسجالات، وأخذ ورد، كنت في السابعة والعشرين من عمري حينها، وخشيتُ من استيقاظ ذاكرة الطفولة حول المدن الصغيرة، فيؤثر ذلك في تقبلي للمكان، وبالتالي ينعكس سلباً على تجربتي الجديدة.

لذة... الاكتشاف!

بيد أن النتيجة كانت مختلفة تماماً، فالمدينة التي لا يستغرق طي أطول شوراعها أكثر من بضع دقائق، كانت شاسعة بالنسبة لي، ليس في مساحتها بل في قدرتها على احتوائي، أنا القادم من المدن الكبرى الصاخبة، التي تدلع لسانها في وجه الصفار، وذوي الاهتمامات البسيطة...

تلك المدن الكفيلة بأن تضيع فيها التفاصيل البسيطة، ولوكانت جميلة، وسط هدير العربات، وتحت أقدام البشر، واختلاف الأحلام.

هنا درس جديد، تعرفت عليه عملياً، فالأحكام المعلبة – دون تجربة– قاصرة بليدة بعيدة عن الحقيقة.

ينبغي بعدها، أن أحاول ألا أُصدرحكماً قبل التجربة العملية.
ثمة شيء آخر بِتُّ أجد فيه متعة لم أكن أعرفها قبلاً...
إنها متعة اكتشاف الأشياء الجديدة...
حقاً...لا شيء كالتجربة، يُعلّم المرء.

وصول...وتعثر!

منذ وصولي «يوجين» اقمت في فندق صغير يطلق عليه دبل تري (Double Tree)، أي الشجرة المزدوجة، وهو فندق وديع حالم، اختاره لي الصديق صلاح الهطلاني، وبالفعل استقر بي المقام في هذا النزل أسبوعين، أنا وزوجتي وطفليّ الصغيرين.

صلاح، الموظف آنذاك في القنصلية السعودية في لوس أجلوس، كان عرّاب رحلتي الرئيسي، فهو اختار الفندق واقترح المدينة والجامعة، وقد تفضل عليّ بأفضال جمة لا تُنسى. لعل اهمها أنه كان على رأس تحركاتي مُرشداً ومعلماً وموجهاً، بمحبة وبذل وعطاء يدر أن تتوافرفي شخص، ما شكل لي تهيئة رائعة لأن أخوض إحدى أهم تجاربي وأنا معتمد على الله أولاً ثم على جبل هو ابن الهطلاني.

شنبٌ كث...رجل فظ!

مطار البلدة الصغيرة، كان آخر نقطة في رحلة تكونت من أربع محطات في طريق سفري: الرياض، لندن، لندن، سان فرانسيسكو، ثم أخيراً... يوجين.

وجدتُ سائق الفندق بانتظارنا في المطار.

مازلت أذكر أنه كان يرتدي شورتاً وتي شرت اخضرين، وأن شنبه الكث الأشقر أبرز معالم وجهه، وقد أوحى لي الشنب الطويل الكث بأن الرجل سيكون فظاً، ولا أدري لماذا توقعت ذلك، لكن من فضل الله علي، أن باء توقعي بالفشل فقد كان الرجل لطيفاً ومتعاوناً.

كنت أحسبني سأسير أموري بإنجليزيتي الضحلة، لكني اكتشفت أني عندما سألت السائق من باب الملاطفة وفتح مجال للحديث عن عدد سكان يوجين أنه أجابني عن القدرة الاستيعابية لاستاد المدينة لكرة القدم الأميركية، الذي صادف أننا نمر إلى جواره!.

غير أن أولى العثرات كانت مع موظفة استقبال الفندق عندما طلبتُ منها توفير صندوق للأمانات، ولم تفهم طلبي.

سافرتُ قبل هذه المرة عشرات المرات، وحيداً، ومع العائلة، ومع رفاق، وفي كل مرة أعمد إلى مكتب استقبال الفندق وأطلب مثل هذا الطلب فيتوفر لي بسرعة، هذه المرة بدت الأمور تتعثر شيئاً ما.

كنت أنطق مفردة SAFETY BOX بالتشديد على الضم: بووكس، ولم تكن الموظفة تلتقط إشارة بثي!.

بعد فاصل مؤلم من السجال، و الأخذ والرد، ومحاولات الشرح

بوسائل الإيضاح، واستخدام اليدين والرسومات، وغيرها... استوعبت الآنسة مرادي، وقالت بلسان حالها: قُل إنك تريد سيفتي باكس، بفتح ما بعد الباء ومدها!.

إنها إشكالية اللهجات والنطق فالأميركيون يُخففون كلامهم، ويتلفظون به باختصار، ويقلبون حروفاً ويبدلونها بحروف أخرى.

شكسبير... يتخلى عن كبريائه

علمت حينها أن علي أن أتنازل عن اعتدادي بما لدي من أنجليزية ضحلة، كنتُ في السابق أتفاخر بها أمام من لا يُفرقون من الأصدقاء بين الـ A والـ B، فأبدو لهم أقل بقليل من ويليام شكسبير، والتقليل هنا، من باب تحلة القسم فقط!

وبدأت مشوار إقناع نفسي، بأن ما لدي من إنجليزية، لا يُقيمُ أَوداً، ولهذا أنا هنا، على أن الكثيرين عندما كنت أتحاور معهم في الأماكن العامة، يعقبون حواراتنا بتساؤل: ماذا جاء بك إلى هنا؟.

فأجيب: تعلم الإنجليزية.

فيردون عليّ بأن لغتي جيدة، وأني لا أحتاج إلى تعلم إضافي!

الناس في أميركا معظمهم لطافٌ يتميزون بالحب و المودة، وهم عندما يقولون كلمة كتلك التي كانوا يقولونها لي في المطارات والمطاعم والمتاجر لم يكونوا يجاملون، أو يكذبون، بل يتعاطون مع كون اللغة هي القدرة على الحديث مع الناس، وطريقة التواصل مع البشر.

هنا وجدت مفارقة عجيبة!

فإحدى أهم مقومات تعلم اللغة في الخارج أن الناس لا يسخرون من أخطائك في اللغة.

بينما دروس الإنجليزية في الوطن، أو استخدامها بين الأصحاب أثناء السفر مظنة لأن تنهال عليك سياط سخرية ونقد و «تريقة» بلا رحمة.

كم استمعت لتعليق يُقال في السفر عندما يُخطئ أحدنا خطأً لغوياً ولو كان مقبولاً، فيسخر منه الرفاق بقولهم: «ذبحت اللغة يا شكسبير»!.

أذكر أني سمعت صديقاً مرة يعلق على آخر تلعثم في جملة ونحن في سفر للخارج، فقال صاحبنا الساخر: «ترفق عليهم يا تشومسكي»!.

انا متأكد أن صاحبنا هذا كان يظن أن تشومسكي وزيراً أو وجيهاً أو حتى لورداً، أو ربما كان رئيس تحرير صحيفة، مع أن صاحبنا لم يقع على اسمه إلا بطريق الخطأ في صحيفة كان يتصفحها ذات نهار بحثاً عن الكلمات المتقاطعة!

لا... بل إنك تجد شخصاً يضاهيك جهلاً في اللغة، وفي الغالب يزيد عليك، لكنه يحاول ستر عوراته الفادحة، وجهله المغدق بالسخرية السمجة واستخفاف الدم.

قل إن شئت: إنه يمارس بذلك، ادعاء ما لا يحسنه!.

إن أهم ما تقدمه دراسة اللغة في الغرب، أن السكان المحليين، لا يعبأون عادةً بأخطاء الوافدين الجدد، كما أنهم يتمتعون بطول البال، والصبر العجيب على الآخر لمعرفة ما يريده، لدرجة قد تستفز وافداً آخر!.

احتلال أمريكا

ياسر قنطوش (2008)

ياسر قنطوش محام وكاتب مصري ومحاضر بكلية النقل البحري بالاسكندرية. في هذه الحكاية الخيالية يصبح ابو الحسن، الرجل الفقير، رئيسا لجمهورية الغلابة (مصر) ويرى في اعلان الحرب على أمريكا واحتلالها الحل الوحيد لازمة رغيف العيش في مصر.

وتهيأ الجميع لنقل وقائع المؤتمر الذي لايعلمون عنه شيئا للآن. يتقدم أبو الحسن إلى منصة صغيرة في مواجهة المراسلين والصحفيين ورجال الإعلام ويلقي بيانه الآتي: بيان من رئيس جمهورية الغلابة:

قررنا نحن أبو الحسن إسماعيل رئيس جمهورية الغلابة اعتقال الرئيس الأمريكى وحراسته الخاصة وحجزهم كرهينة في مكان آمن ولن يتم الإفراج عنهم إلا بعدة شروط:

أولها: أن تقبل الولايات المتحدة الأمريكية أن تخضع للاحتلال من قبلنا نحن جمهورية الغلابة دون قيد أو شرط

ثانيا: يتم إعطاء أمريكا مهلة قدرها اربعة وعشرون ساعة فقط لاغير وإلا سنضطر لقتل الرئيس الأمريكي وخمسة عشر شخص آخر بحوزته.

انتهي البيان

ويسود الهرج والمرج وتعلو الضوضاء ويتكاثر الصحفيون ويتكأكأون على أبي الحسن وكل منهم يحمل مايك بيده يحاول أن يساله ويسجل كلامه.

ويقوم وزير الاعلام بترتيب الأدوار وتحديد اسماء الصحفيين ومن يتقدم ومن يأتي بعده.. ولم يستغرق الأمر أكثر من ربع الساعة حتي أذن وزير الاعلام ببدء طرح الأسئلة.

ويبدأ أبو الحسن فى تلقى أسئلة الصحفيين:

سؤال.

ماذا تفعل لو رفضت أمريكا المهلة

جواب.

ذلك لن يحدث لأن المواطن الأمريكى يساوى الكثير عكس عندنا.

ولكن إذا حدث ورفضت سوف يتم قتل الرئيس الأمريكى أي إننا جادون في تهديدنا وسننفذه إذا لم ترضخ أمريكا لشروطنا.

سؤال.

ماذا تفعل لو قامت أمريكا بضربكم بالطائرات وأنت تعلم أن القواعد الأمريكية موجودة فى منطقة الخليج العربى.

جواب.

لأن أمريكا تحرص دائماً على مواطنيها. وذلك أيضا لن يحدث.

تتقدم صحفيه وتحاول أن تلقي سؤالا ولكن ابو الحسن يشير إليها قائلا: انتهي المؤتمرويخرج من القاعة وسط دهشة عارمة من كل الموجودين ويأخذ فى متابعة ردود الأفعال العالمية حول هذه الواقعة في هذه الأثناء اهتزت كل بورصات العالم وسجل الدولار أدني مستوى له أمام اليوروواالين وقفز سعر برميل البترول الخام إلى أربعة أضعاف ماكان عليه وتم إحباط محاولة لاحتلال السفارة الأمريكية في البرازيل وألقت سيارة مسرعة بقنبلة انفجرت عند باب السفارة

الأمريكية في نيودلهي ولم تسفر عن اصابات في الارواح.. واندلعت مظاهرات عارمة في طهران تطالب بمحاكمة الرئيس بوش كمجرم حرب .

وتم تفجير مصفحتين أمريكيتين في بغداد واختطاف اثنين من الرعايا البريطانيين في سامراء.. وأعلنت منظمة مجهولة تحمل اسم فدائيون بلا حدود أنها المسؤلة عن حادث الاختطاف .

وتحرك الأسطول الأمريكي بكل غواصاته وقطعه الحربية متوجها إلى المياه الإقليمية لجمهورية الغلابة بانتظار الاشارة، وتم اعلان التعبئة العامة في الجيش الاسرائيلي تحسبا لحرب محتملة...

في هذه الأثناء تواترت الأخبار عبر الأقمار الصناعية أول الأنباء: مجلس الأمن يعلن عن انعقاد دورة غير عادية للمجلس غداً ويطلب من أبي الحسن ضبط النفس وعدم التسرع حتى لا يتعرض لما حدث لصدام ويدعوه لمناقشة كل طلباته تحت غطاء من الشرعية الدولية وألا يلجأ إلى أسلوب القرصنة الذي لن يجدي نفعا.

يسمع هذا الخبر ويضحك

هو أنا اعتقلت ملك الكويت،..... ده أنا خلصت العرب والعالم كله من بوش . . . .. هناك فرق كبير بينى وبين صدام.....

أبو الحسن يكلم وزير الإعلام: هاتولنا إذاعة روسيا.

تعلن روسيا أنها تؤيد قرار الاحتلال وتوافق على كل الشروط التي طالب بها أبو الحسن رئيس جمهورية الغلابة وأنها سوف تستخدم حق الفيتو ضد أى قرار يصدر من مجلس الأمن ضد احتلال أمريكا وانها لن تمكن أي دولة مهما كانت من ضرب جمهورية الغلابة إذاعة إيران:

الرئيس الإيرانى يعلن تأييده للاحتلال الغلابى ويطلب من رئيس جمهورية الغلابة إرسال وفد من إيران مشترك مع جمهورية الغلابة للتفتيش على أسلحة الدمار الشامل الموجودة فى أمريكا مقابل تزويد جمهورية الغلابة بمفاعل نووى.

ويضحك أبو الحسن من هذا الخبر ويتعجب ويقول هكذا تدور الدوائر.

إذاعة إسرائيل:

.تعلن إسرائيل عن رفضها للاحتلال الغلابى وتطالب بإلغاء حق الفيتو لأنه يشل حركة مجلس الأمن بشأن اتخاذ قرار ضد اختطاف الرئيس الأمريكى.

سبحان الله... يتعجب أبو الحسن وهو يهتف بصوت عال مملوء بالنشوة.

أول مرة يقف الفيتو ضد وليس مع إسرائيل حيث تطالب بإلغاءه بالرغم من الدول العربية المسكينة لم تستطع مرة واحدة أن تطالب بإلغاءه ووقوف مجلس الأمن عاجزا أمام اسرائيل بفضل الفيتو الأمريكي

أبو الحسن يشد قامته جيدا ويطلب من السادة الوزراء الإنتباه جيدا وتوخي الحذر في المرحلة القادمة لأنها ستكون فاصلة في تاريخ جمهورية الغلابة هذه المرحلة الهامة من تاريخ هذه البلد يجب أن ننتبه لما يحدث وماسوف يحدث فيها وأخيراً: وبعد مرور أربع ساعات ثقيلة الوطء تخرج اذاعة البي بي سي بإعلان عجز مجلس الأمن فى جلسته الطارئة غير العادية عن اتخاذ قرار بشأن الموقف الراهن

بسبب استخدام كلا من روسيا والصين لحق الفيتو الذى عرقل قرار الحرب ضد جمهورية الغلابة الصين تصدر بيانا تعلن تأييدها لقرار الاحتلال وتطلب من الشعب الأمريكى الخضوع للاحتلال وأنها استخدمت حق الفيتو أملا فى إغراق السوق الأمريكى للمنتجات الصينية باعتباره ولاية خاضعة للاحتلال الغلابى وأخيرا.......... يصدر بيان صادر من البيت الأبيض الأمريكي فحواه أن الولايات المتحدة تعلن قبولها للاحتلال الغلابي وأنه أمر أهون من قتل مواطن أمريكى بلا ذنب ويشترط البيت الأبيض لقبول هذا الإحتلال عقد مؤتمر صحفى للرئيس الأمريكى المختطف بحضور الأمين العام للأمم المتحدة ويكون علنيا ويذاع على الهواء مباشرة وتتكفل كل الأقمار الصناعية بنقله لكل أرجاء المعمورة الأمر إزداد سخونة ويجب التحرك السريع من قبل أبي الحسن والوزراء.

ويعلن أبو الحسن عن عقد اجتماع طارئ لمجلس الوزراء لمناقشة الاحتلال الغلابي لأمريكا ومايستتبعه من إجراءات وتطورات يجب التكهن بها ووضع الحلول السريعة المناسبة لها.

ويدعو لعقد اجتماع طارئ يضم كل الوزراء والمعنيين بالأمن القومي.

لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة.

وتزاحم الوزراء على مجلس الوزراء.

أحذية براقة وبدل أنيقة وعربات سوداء ذات زجاج فامي لايكشف عمن وراءه وخطى متسارعة وحرس يؤدي التحية لكل قادم... وبوليس سري يتحرك في كل مكان واتجاه كأن شيئا ما سوف يحدث وهم بصدد

تطويقه... الجو مكهرب وكل شئ يوحي بالحذر والترقب لمجهول سوف يجئ. وهكذا اكتمل العقد وتم عقد االإجتماع وبعد الديباجة السريعة تقدم أبو الحسن واقترح رفض الطلب الخاص بحضور الأمين العام للأمم المتحدة مع تخدير الرئيس المختطف قبل المؤتمر واستغرب الوزراء هذا الرأي وبعد مشاورات لم تستغرق الكثير وافق أبو الحسن على الطلبات الأمريكية بعقد مؤتمر يحضره بوش (بدون تخدير) والأمين العام وهكذا انفض الإجتماع وبدأ التحضير للمؤتمر العالمي المرتقب وبعد ألف إجراء احتراز أمني لايهمنا كثيرا تم عقد المؤتمر.

تبدأ وقائع المؤتمر الصحفى. داخل قاعة كبيرة.

أبو الحسن يقف بين الأمين العام والرئيس الأمريكى.

وتدور الأسئلة.

أحد الصحفيين يسأل أبو الحسن عن مدة الاحتلال.

أبو الحسن يجيب حسب التساهيل وربنا يجعل الولايات المتحدة عامرة بالخيرات.

ويتوجه أحدهم بالسؤال إلى الأمين العام :كيف تقف الأمم المتحدة مكتوفة الأيدى أمام هذا الاحتلال

يجيب الأمين العام:

الأمم المتحدة دائماً مكتوفة الأيدى أمام أمريكا واسرائيل وهذه المرة هى مكتوفة الأيدى بسبب ما تفعله أمريكا وإسرائيل من توليد الكراهية اليومية والمستمر فى جميع شعوب العالم وهذا نتيجة طبيعية ومنطقية لما تزرعه أمريكا وغداً سيأتى الكثير.

ويجئ الدور على الرئيس الأمريكي:

ألا تذكر وأنت في هذا الموقف صدام حسين ولحيته الكثيفة وشكله غير المهندم.. وكل مافعلته بصدام حسين أثناء اعتقاله وإعدامه.

يضحك ويقول بدبلوماسية مصطنعة:ربما تكون عدالة السماء

هنا يعلن أبو الحسن انتهاء المؤتمر الصحفي ويأمر بإرجاع الرئيس الأمريكي إلى مكانه الآاآمن

يتفرق الجمع ويبدأ أبو الحسن في اكمال باقي ماانتواه.

فيعلن تشكيل لجنة وزارية لمباشر شئون المستعمرة الأمريكية ويقرر الآتى.

أولا: ندب السيد نائب رئيس الجمهورية لتولي الحكم فى الولايات المتحدة حتي صدور تعليمات أخرى.

ثانيا: ندب السيد رئيس الأركان الحربية لكى يكون رئيس الأركان الأمريكية ،ويتولي كافة مهامة حتي إعلان آخر.

ثالثا: ندب السيد وزير الداخلية ليقوم......

وقبل أن يكمل كلامه يميل عليه أحد الوزراء وهو يهمس له: وزير المالية يا ريس....يتدارك أبو الحسن الأمر.ويندب السيد وزير المالية ليتولى مسئولية وزارة المالية الأمريكية ثم يكمل انتداب وزير الداخلية ليكون مسؤلا عن الأمن والأمان في امريكا ثم وقبل الانتهاء يأمر بتشديد الحراسة على الرئيس المختطف لحين الانتهاء من الاحتلال بعد ساعات تندلع مظاهرات التأييد من بشر رافعين اللافتات المؤيدة للإحتلال ويهتفون بالروح بالدم نفديك يازعيم. وتتوقف المواصلات ويتجمع مئات الآلاف في الميادين العامة والطرقات والشوارع الجانبية

وعلى أسطح المنازل والبيوت وفي الأتوبيسات والقطارات... كأن الأرض انشقت ودفعت كل هذه الكتل البشرية فساحوا في كل فجاج الأرض وكلهم حناجر هادرة..كأنهم أحسوا أن الجنة سوف تتفتح لهم وكل مشاكلهم أصبحت قيد الحل وسيتحولون إلى مشاكل لها طابع جديد..ستنحصر المشكلة في قلة عدد البنوك التي سوف تكتظ بمدخراتهم وشركات السياحة والشركات المسؤلة عن بيع وصيانة اليخوت والشركات المسؤلة عن بيع الطائرات الخاصة..ثم ستكون مشكلة كبيرة وهي قلة عدد فنادق الخمسة نجوم لأن الموجود لن يفي بأي حال من الأحوال بمتطلبات الشعب الذي أصبح تفكيره خلال ساعات قليلة اننزول في هذه الفنادق وتناول وجبات اليوم كاملة فيه ومالإلى ذلك من مشاكل سوف تؤرقهم ولكن ما أجمله من أرق إنه أرق الباشوات... هذا ماحدث في الشارع الغلابي ويختلف الموقف فى الشارع الأمريكى..فقد تم إجراء استطلاع رأي وموقف المواطن الأمريكي من الاحتلال الغلابي... واتضح أن الشعب الأمريكي لا يقلق من هذا الاحتلال لأنهم إناس تنفسوا المعنى الحقيقى للديمقراطية واستنشقوا عبيرها فلن يؤثر فيهم أى احتلال مهما كان ستدور عجلة الحياة بهم ولن يتأثر شيء، فأمريكا محكومة بمؤسسات عتيدة والحكومة ماهي إلا أشخاص يتم اختيارهم بانتخابات حرة ونزيهة لكي يقوموا بمهمة اشرافيه على سير الخطط التي يقدمها متخصصون في كل المجالات بدأ من ارتياد الفضاء وحتي رقص الباليه كل شئ معروف ومحدد ويخضع لخطط لاتميل قيد أنملة فلاشئ إذا سوف ينقص أو يزيد من جراء ألف احتلال والمسألة عندهم تتلخص في

مبدأ أدبي وانساني أن هناك أشخاصا مهددة حياتهم بلاذنب وكان يمكن ان يغض الشعب الطرف لولا أن تصادف أن هؤلاء الأشخاص أمريكيون....

تنطلق الطائرة متوجهة إلى أمريكا وعلى متنها لجنة الاحتلال وتهبط الطائرة على الأراضى الأمريكية باحدى مطارات مدينة واشنطن العاصمة .ويكون فى استقبالهم لجنة مكونة من أعضاء الكونجرس الأمريكى وينعقد في صالة المطار اجتماع مع وفد الاحتلال وبعدالشد والجذب. يتم الاتفاق مع لجنة الكونجرس على أن يكون لها دور فى القرارات الصادرة من لجنة الاحتلال وفى حالة الاختلاف يكون اللجوء لمحكمة العدل الدولية لتفصل بينهم اعترض أعضاء لجنة الإحتلال أولا ولم يوافقوا إلا بعد الإتصال بأبي الحسن وأخذ رأيه في الأمرولكن ابي الحسن ابدى مرونة عالية ووافق على الاقتراح وفي نفس الوقت يهيب باعضاء اللجنة أن يبدأوا في مباشرة أعمالهم ويأمر وزير المالية بشكل خاص أن يشغل دماغه في جلب أكبر قدر ممكن من الأموال بطريق الضرائب او أي طريق المهم تكون هناك دولارات وورق أخضر.

أمريكا نعم، أمريكا لا

مها عبد الفتاح (2008)

مها عبد الفتاح صحفية مصرية.

احترت في تكييف هذا الشعب!

الذي يظن أن روح العائلة في أمريكا تتفكك وتتحلل، عليه الا يتعجل لعله لو عايش هنا «عيد الشكر» في الخميس الأخير من شهر نوفمبر لربما أدى إلى تغيير نظرته... لأنه سيرى أمريكا كلها ذلك اليوم وقد تحولت إلى حضن كبير يتسع لكل هذا الخليط المتنافر الذي يدب فوقها من بشر.

الشوارع تكاد تقفرمن المارة و السيارات، والمحلات التجارية تلك التي تظل مفتوحة، كل أيام الأسبوع على مدار العام تغلق أبوابها يوم عيد الشكر فهذا هو العيد القومي الكبير لأمريكا...يومان اثنان فقط كل عام تنهد فيهما روح التجارة والسوق فيغلق أبوابه: يوم الشكرويوم الكريسماس.

ولأن عيد الشكر لا يختص بعقيدة ولا دين ولا يتبع جنسية معينة ولا لون بشرة لذا جمع بين الأمريكيين جميعاً من بيض وصفر وحمر وسود... ابتدعه المهاجرون الأوائل عندما استقروا وزرعوا وحصدوا الخيرا فاصطفوا هذا اليوم من كل عام للتجمع حول موائد فضل الخير وشكر الله ودعوة كل عابر سبيل... كانت الديوك الرومية أقصد

(التركية) كما يسمونها تسرح في البرية فأصطادوها واستأنسوها وصارت تتوسط المائدة، أهم شعائر هذا العيد... ولاتوجد عائلة أمريكية من أي وسط إجتماعي إلا وتكون أما داعية أو مدعوة يوم عيد الشكر... ولايترك شخص واحد بمفرده في هذه المناسبة فهو عيد لم الشمل والجماعة وصارت له طقوس وتقاليد مرعية... فإذا كان الكريسماس هو الاحتفال الخصوصي للعائلة الواحدة

للمصمم: فوق وتحت سطر واحدفإن يوم الشكر هو الاحتفال الجماعي مع كل من تعرف ومن لا تعرف...ومن طقوسه أن يأكل الأمريكيون جميعاً نفس أصناف الطعام بذات القائمة التقليدية (التركي) المحشو بما تيسر وإلى جانبه البطاطس ولابد أن تكون مدهوكة...وصلصة التوت والحلو دائماً فطير القرع العسلي... هذه هي قائمة الطعام على كل مائدة من أفقر فقير إلى أغنى ملياردير والفارق كل الفارق في مفرش المائدة وأطقم الصيني من الورق أو الشوك والسكاكين الفضة أو الصلب أو البلاستيك.

الكنائس تفتح أبوابها في ذلك اليوم بموائد ممدودة، فوقها ذات القائمة لكل من لا مأوى له ولا عائلة ولا صديق... وعشرات الآلاف من (الاتراك) تذبح في هذه الفترة من كل عام أو بالأصح تقصف رقابهم لهذه المناسبة... ولنا في دائرة الأصدقاء المصريين مهندس اشتهر بأنه أحسن من يطهو التركي يوم عيد الشكر...وله في ذلك طقوس يمارسها وحده ولا يشرك فيها حتى زوجته...يوم كامل مخصص لغسيل الديك في حمام من الملح والدقيق والماء الفاتر... واليوم الثاني مخصص ليرقد فيه الديك وسط التوابل والاعشاب والعصائر... وفي

اليوم الثالث يحشوه بمكعبات من التفاح ولباب نوع معين من الخبز مع المكسرات ويدهنه بالزبد ويدخله النار ويتخلل ذلك إطلالات منه كل بضع ساعات وبحقنة مطاطية مخصوصة يشفط العصارة التي تتساقط منه ليعيد حقنها فيه.وهكذا يتطهر التركي من ذنوبه وينضج ويستوى في 17 ساعة بالتمام ليخرج إلينا كأطيب ما ترى العيون وأزكى ما تشم الآنوف!

ولا يوجد على ما أظن طباخ واحد في العالم يمكن أن يقوم بهذه الطقوس ويخصص أيام ثلاثة لأعداد وطهو الديك ولا حتى طباخ الملكة اليزابيث!

قصة العفو عن ديك الرئاسة!

ومن الطقوس التقليدية في هذا العيد أن يذهب ممثلو الاتحاد القومي للديوك الرومية أقصد التركية، ومعهم ديك يليق بالرئاسة ويتوجهوا به إلى البيت الأبيض ويقدمونه هدية للرئيس حيث يستقبل الديك استقبالاً رسمياً يسجله الصحفيون بالصوت و الصورة. هذا العام (1992) صحبوا (تركيا) أبيض منفوش الريش منتفخ الصدر ممتلىء الجسم يتحرك ويمشي بالكاد من فرط ثقل وزنه وأطلقوه في حديقة الورد «الروز جاردن» الملحقة بالمكتب البيضاوي انتظارا لتشريف الرئيس. وبينما كان (التركي) منتفخاً خرج (بوش) مكسورالجناح ووجد مائة تلميذ بانتظاره وفق عادة كل عام... وألقى كلمة قال لهم فيها إن عيد الشكر ليس مجرد مناسبة نحشو فيها

بطوننا وإنما هو وقت لاستعادة الأعمال الطيبة التي قمنا بها والتي نحن بسبيل أن نقوم بها... وكأنما كان يحادث نفسه ويحكي مع حاله (بوش خسر الانتخابات أمام كلنتون وعلى وشك المغادرة) وقاموا بتقديم الديك(توم) ولم يسموه (بيل)كما توقعنا التفت بوش وألقى نظرة أخيرة على الديك ثم قال: قررنا العفو عنه وأعتقناه ليعود من حيث جاء ويعيش ما تبقى له من العمر ويخلف ديوكا ودجاجات!

وخلال هذا الاحتفال التقليدي كانت هناك مظاهرة صامتة تقف أمام بوابة البيت الأبيض والمظاهرات هنا كلها صامتة بلا زعيق ولا ازعاج. ولا يتدخل البوليس، وإنما يكتفون بحمل شعارات مكتوبة مثل «يسقط قتلة الاتراك»! «العار لآكلي اللحوم المتوحشين»! «دماءالطيور والحيوان تلطخكم»... مع أنهم هنا لا يذبحون الذبائح إنما يقصفون رقابها بالمقصلة الأوتوماتيكية بإستثناء ذبائح المسلمين واليهود (الكوشير) واليهود يكبرون عليها بقولهم: أحد... أحد...

ولأن هذا هو موسم الأتراك الديوك من عيد الشكر لعيد الكريسماس فهي أيام تنشط فيها جماعات أنصار الطير والحيوان وأحدثها- جميعاً من يطلقون على أنفسهم «جبهة التحرير» تحرير الطير والحيوان من الإنسان... وهي جميعة إرهابية في نظر البوليس لأنها قامت بعمليات عنف في عدة ولايات على مدى العام الأخير، أحرقوا لوريات تنقل اللحوم، وهاجموا مزارع تربي حيوان المنك ذات الفراء وأطلقوها.

وأي امرأة في أمريكا صارت تفكر مرتين قبل أن ترتدي فراء وتنزل به الى الطريق العام... مع أنه وحتى بضع سنوات كان من

يأتي لأمريكا في الشتاء يخيل إليه أن جلود نسائها من الفراء. كنا لا نشاهد من النساء غير وجوه تطل من فراء... حالياً استطاع أنصار الحيوان وحمايته من عبث الإنسان أن يبثوا الرعب ويثيروا الخجل بين من ترتدي الفراء فهي بالقليل ستسمع بأذنيها ما لا ترتضيه من توبيخ يجرح مشاعرها إلى تهديد وأهانات... وباربارا بوش حرصت على مدى السنوات الأربع التي قضتها في البيت الأبيض على ألا تظهر في أي مناسبة علنية وهي ترتدي الفراء...ولاأحسب أن هيلاريكلنتون السيدة الأولى الجديدة سوف تقدم على هذا التحدي لآلاف مؤلفة من الأمريكيين صاروا يعلنون عن عدائهم السافر لكل من ترتدي الفراء.

في نيويورك حيث جرعات العدوانية والشراسة أكبر، يندر أن تجد امرأة تسير بفرائها في الطريق دون أن تتعرض لحادث، كأن يرميها أحد ببعض الطلاء أو البويا... وعلى من تريد ارتداء الفراء وتضمن والسلامة، أن تتوجه بالسيارة مباشرة من بيتها إلى حيث تقصد... وياويلها لو كانت مشهورة و ضبطتها الكاميرا، عندئذ تتحول إلى شخصية مكروهة وتفقد جمهورا كبيرا من المتعاطفين مع حيوانات الفراء! بعض نساء الدول البترولية الحارة يقال إنهن يشغلن أجهزة التبريد إلى أقصى مداها حتى يرتدين فراءهن ويتمخطرن به في أبهاء القصور!.

في بيتنا نباتي...

أخذ الصبي الصغير ابن الخمس سنوات يتابع أمه وهي تفتح الفرن وتخرج منه الصحن الذي تتوسطه البطة الناضجة بلونها البني المحمر وترصعها حلقات الخوخ وقطع الكرز برائحتها الشهية تملأ المطبخ... وما أن شاهد الصبي الصغير البطة القابعة في الصحن حتى اتسعت حدقتاه واكتسى وجهه بالذعر وخرج صوته كالفحيح متسائلا باستنكار: «مامي هل قتلت البطة؟! وهل هي بطة حقيقية كانت تكاكي؟ وهل فخدة الخروف التي تطبخينها لنا هي لخروف حقيقي»؟!.

ردت ألام ببساطة: أيوه يا حبيبي... طبعاً هي بطة، وفخذة الخروف هي من الخروف ولم تكن المسكينة تعرف ماذا تخبئة لها هذه الإجابة! فالولد الصغيرلم يقرب تلك البطة ولا ديك ولا دجاجة ولا أي قطعة لحم كانت لخروف أو لبقرة!.

وكانت هي البداية، وفي المدرسة بدأ يتلقى دروسا في المثاليات السامية و العطف على الضعفاء وخصوصاً الحيوان لأعجم المسكين الذي لا يعرف كيف ينطق ويعبر عن المه!.

وللنباتيين تحت سن العشرين مجلة موسمية تظهر كل ثلاثة أشهر يسمونها «أحوال الأرض» ... ولا تزيد عن 12 صفحة ويحررها الشباب النباتي تحت سن العشرين من كل أنحاء الولايات المتحدة وكندا... رابطة كبرى!.

نحكي لكم طرفا من تقاليد هذا الشعب الأمريكي الذي هو (عشري) ودود مفتوح القلب ومعطاء وخدوم ويرفع التكليف بزيادة عن اللزوم وملعون أبو السياسة الأمريكية، فهذه ضعها جانبا وإنما كشعب هو شيء مختلف ومزاياه أكثر من عيوبه وللحق هم على رأس الشعوب التي يألفها الغريب... فهذه البلاد لاتعرف فيها غريبا من قريب فهم جميعا في الأصل غرباء إما مهاجرين (صف أول) أو من ابناء المهاجرين أو الاحفاد!.

جاء مباشرة من المطار... 22 ساعة طيران من أقاصي أسيا فوصل متأخرا عن الموعد بعشر دقائق و (التركي) بانتظار العفو عنه وحوله الحاشية ورجال البلاط و الكاميرات والصحفيون وجمهور المدعوين كلهم في حديقة الورد منتظرين... وهل بطلعته الطفولية فصاح أحد الحاشية: الرئيس ويليام جيفرسون كلينتون! هكذا أصبحوا يقدمونه الآن ومنذ فوزه بالمدة الثانية، واسم (بيل) كاد أن يمحي بينما كانوا في البداية لا يعرفون له اسماً غيره!.

الآن صار يقدم على هذا النحو التاريخي، الأبهة وحكاية العفو على (التركي) من قبل الرئيس، تقليد أمريكي يرجع إلى 47 عاماً مضت ولم يتخلف عنها رئيس... فيتقدم الاتحاد الوطني (للتركي) بثلاثة ديوك فـ (التركي) عندهم هو (الرومي) عندنا و(الهندي) عند الأوروبيين وهو في كل الحالات ذلك الديك المحترم الذي يتصدر موائد العزايم والكرايم و المناسبات... ونعود إلى الأتراك الثلاثة أحدهم صاحي ينفجر حيوية ويصلح كأحسن دعاية للتربية الأمريكية فيصدر الرئيس عفوا عنه أي ينجو بحياته... عفواً حقيقياً فلا تضمه مذبحة الأتراك وأما الآخرون فإلى الإعدام ثم الالتهام!.

و(تركي) هذا العام تربى وترعرع في مزرعة بولاية «أوهايو» على يد أربعة من الصبية أطلقوا عليه اسم (توم)... ولأن عم الأولاد يعرف الرئيس الحالي للاتحاد التركي فقد حدثه عن الديك الأبيض المهول الذي يربيه أبناء أخيه وطلب منه ترشيحه ليكون أبا الريش المعفو عنه هذا العام... وقد حدث! وفي اليوم الموعود (حموه) ومشطوا ريشه وقلموا منقاره بالمبرد زيادة في التجميل وشحنوه مع الأولاد إلى واشنطن متجهين إلى البيت الأبيض لبدء مراسم الاحتفال.

بدأ تركي هذا العام أشبه بالطاووس الأبيض... منفوخاً منفوشاً، وزنه في تقديري خمسين كيلو ثم تبين أنه بالوزن ستة وعشرون رطلا بكامل الريش وضعوه فوق مائدة العرض الطويلة بعد تقديمه للضيوف قالوا اسمه (كارل)! صاح الأولاد توم... توم! بدا التركي مرتعدا في البداية فالجو من حوله غريب والعيون تحدق فيه بشراهة، ثم بدأ يأخذ على الجو ويتمخطر ذهابا وإيابا فوق المائدة... وما إن وصل كلينتون حتى بدأ يداعبه ويمسح على ريشه وذاك ينتفض فتهب ذرات الريش لتحط على البدلة الكحلي، وفجأة وفي أقل من ثانيتين قام (التركي) بعمل لايليق خصوصا في حضرة الرئيس!... بكل الثياب خلفها وراءه على المائدة أمام أعين الجميع ثم مضى بتثاقل يكمل مشواره إلى طرف المائدة! ساد الصمت للحظة ثم انفجر الجميع في ضحك متواصل خصوصا كلينتون فهذه أول مرة يعملها أي (تركي) في حضرة الرئيس! قال عفونا عنه مرة أخرى! وهكذا اكتملت المراسم التقليدية في العفو على هذا النحو غير المنتظر وشحنوا التركي إلى حيث نقل إلى مزرعة في «فرجينيا» حيث بانتظاره مهام أخرى ستعرفونها حالا!.

من المعلومات الجديدة التي دخلت هذا العام إلى قاموسي الخاص عن الحياة الأمريكية أن تكاثر نسل (الأتراك) في هذه البلاد إنما يحدث غالبا وفي معظم الأحوال بالتلقيح الصناعي! فهو أسرع وينتج ذرية أكثر! فإذا كانت أمريكا تأكل من صنف التركي يوم عيد الشكر ما لا يقل عن 45 مليون ديك أي بمعدل ديك لكل أربعة أفراد إذن فالذرية العادية من سلالة الديوك التركية لن تكفي كل تلك العباد!.

و الفكرة علمية وإن كان تطبيقها يحدث بطريقة بدائية هي أغرب من الغرابة أعفوني من الشرح!.

في حدائق الحيوان بأمريكا يقومون بمثل ذلك عندما تفشل حيلهم في تزويج النوعيات النادرة من الدببة والفهود والنمور وغيرها فيلجأون إلى طريقة التلقيح الصناعي للحصول على نسل السلالات عزيزة المنال.

وتردد دوائر خبيثة في واشنطن أن عيد الشكر هو العيد المفضل لدى الرئيس «ويليام جيفرسون كلينتون» وما أكثر الأعياد القومية لدى الأمريكيين... عيد المحاربين وعيد العلم وعيد الاستقلال وعيد كولومبوس وعيد الرئيس جورج واشنطن وعيد الحب وعيد الأم وعيد الأب وعيد السكرتيرة إلخ إلخ.

ويقال إن كلينتون يحب عيد الشكر لأنه أكول ويحب الرمرمة كما (هكذا وردت في النص الاصلي) أطايب الطعام ولا يفوقه في ذلك من الرؤساء الحاليين سوى المستشار الألماني «هملوت كول»... وقد جاء كول إلى واشنطن مرتين وفي كل مرة يأخذه كلينتون مع الزوجتين ويذهبون إلى مطعم إيطالي معين في ضاحية «جورج تاون» اسمه

فيلومينا ويتباريان في التهام أطباق (الباستا)... نعود إلى كلينتون و الوجبة التقليدية لعيد الشكر وهي (التركي) المحشو بالخلطة و المكسرات والتفاح المهروس، والقرع العسلي... ولأن عيد الشكر موعده هو الخميس الأخير من شهر نوفمبر فالأمريكيون يوصلون به الجمعة مع السبت و الأحد.

وقد ذهب كلينتون ليقضي الإجازة في «كامب دافيد» مع زوجته وابنته،وعلى عهدة الراوى قيل إنهم أكلوا ديكا تركيا في حجم السيارة الصغيرة! ثم لعب الجولف وتفرج على مباراة كرم القدم في التلفزيون ثم أجهز على ما تبقى!.

وحكاية (التركي) وعيد الشكر تعود إلى القرن السابع عشر (تقليد العفو عن (تركي) واحد كل سنة تقليد يعود إلى 47 عاماً فقط) فقد وصل إلى العالم الجديد من يسمون بالحجاج قادمين من انجلترا... وتعلم هؤلاء زراعة الذرة من الهنود الحمر فلما جاء المحصول غزيرا وفيرا قرر الحجاج أن يقيموا وليمة يتصدرها (التركي) لتتلو طقوس الشكر لله ودعوا الهنود الحمر إلى المأدبة...وإلى هنا والمغزى واضح فالوئام والسلام والخير ممكن أن يعم ويسود بين الأجناس، ولكن بقية القصة لم يعودوا يرددونها أمام الأطفال حتى لا يحرجوهم بالأسئلة فما أن انتهى الحجاج من التهام الطعام وقبل أن يجئ دور الحلو تحولوا إلى الهنود الحمر في المأدبة وأجهزوا عليهم وكما فعل محمد علي مع المماليك... إنما أيهما سبق تاريخيا فهذا مالا أستطيع أن أجزم به!.

ويقال إن كلينتون عندما قال في كلمته المذاعة في عيد الشكر علينا أن نتذكر اليوم من هم أقل منا حظا ونمد إليهم أيدينا، فقد كان

في ذهنه بالطبع منافسه في الانتخابات فطلب كلينتون من الأجهزة المعنية أن يبحثوا عن مكان السناتور السابق ويرسلوا إليه نجدة إنسانية!.

ثم قال للشعب الأمريكي: لقد هزمته في الانتخابات أي نعم ولكن ليس معنى ذلك أن أتركه يجوع!.

وسكت ثم تنحنح وقال مخاطبا شعبه: وكما نشعر اليوم بالفخر لكوننا أمريكيين فلتذكروا أيضا أن عيد الشكر ليس مجرد (تركي) محشو وبطاطس مهروسة وإنما أيضا، مرق (وصوص)!.واشكرك يارب. وليبارككم الله! ويليام جيفرسون كلينتون!.

هذه هي أمريكا

يوميات طالب مصري في بلاد العم سام

علاء مصباح (2009)

علاء مصباح مصري درس في الولايات المتحدة لعدة سنوات.

في مطار JFK

شو بتحكي عربي؟!

علا صوت الطيار يدعو الركاب إلى ربط أحزمة الأمان ووضع المقعد في الوضع الرأسي والاستعداد للهبوط خلال دقائق في مطار «جون كيندي JFK»...

من نافذة الطائرة كنت أحاول رصد أي شيء يمكن رؤيته أثناء الهبوط... وكان المشهد مخيبا للآمال بشدة... لا شيء سوى المحيط الأزرق الشاسع... على شاشة الطائرة نرى مسار الطائرة يبتعد عن الخط المباشر صوب نيويورك ويميل قليلا تجاه المحيط... نحن تركنا اليابس وتحركنا صوب المحيط... الطائرة تدور حول نيويورك ولا تهبط تجاهها مباشرة... وهكذا تحولت المساحات الخضراء التي كنا نراها من نافذة الطائرة إلى اللون الأزرق الممتد بلا حدود.

النصف ساعة الأخيرة قبل الهبوط علا صوت الكابتن يطلب من الركاب بدء ملأ الاستمارة التي تتسلمها السلطات الأمريكية في

المطار، وهكذا توقف عرض فليم «واحد من الناس» مصحوبا بترجمة إنجليزية طبعا وإن كان معظم الركاب الأجانب لا يتابعونه... في لحظاته الأخيرة، وبدأ المضيفون توزيع الاستمارات!.

والتعليمات واضحة... استعمل حروف إنجليزية كابتل...اكتب كل شيء بمنتهى الدقة والوضوح... كل المعلومات عن اسمك وعنوانك ومحل إقامتك في الولايات المتحدة حتى رقم رحلة الطيران لابد أن تكتبها بوضوح...منتهى الوضوح!.

وهبطت الطائرة...بسهولة ومرونة لم نتوقعها...

هذه نيويورك أيها السادة... نيويورك بلا ناطحات سحاب ولا تمثال حرية ولا سنترال بارك... كنت على أمل أن أرى كل هذا أثناء الهبوط لكنني لم أر سوى المطار والطائرات الكثيرة الرابضة على أرضه - فيما بعد عرفت أن ناطحات السحاب في مانهاتن بينما المطار في لونج أيلند...بالنسبة أول طائرة رأيتها كانت تحمل علم إسرائيل...بداية مبشرة جدا!.

نزلنا من الطائرة إلى ممر طويل يقودك إلى قلب المطار مباشرة... صف طويل تقف فيه بانتظار الوصول إلى مكتب رجال الجوازات... أخرجت الكاميرا والتقطت بعض الصور حتى جاء إلى رجل أمن وأخبرني أن التصوير ممنوع وطلب مني مسح كل الصور... أطفأت الكاميرا بهدوء ولم أمسح الصور... هكذا بمنتهى البساطة! هنا بدأت أنتبه إلى وضعنا الجديد... الآن قد تغير كل شيء... الوجوه التي تراها من حولك لم تعد مصرية... رجل الأمن هناك لم يعد مصريا... ضابط الجوازات الذي ستقابله بعد دقائق ليس مصريا...

الناس من حولك لم يعودوا من أبناء وطنك... حتى الأرض التي تقف عليها لم تعد أرضك... هذه هي الحقيقة بكل بساطة، وإن كنت لم أشعر بفارق كبير بعد... حتى المطار نفسه لا يبدو مبهرا رائعا... أليس هذا هو مطار جون كينيدي أكبر وأشهر مطارات العالم... الفارق الذي لاحظته كان نزولنا من الطائرة إلى قلب المطار مباشرة عبر الأنبوب ودون الحاجة إلى استقلال أتوبيسات... في تلك اللحظة استقبل هاتفي المحمول رسالة الترحاب الأولى... كنت، قد حولت إلى خدمة التجوال في مطار القاهرة، وبهذا تحولت إلى شبكة الاتصالات الأمريكية T&TA المهمة، وقالت لي: أهلا وسهلا!.

وصل الصف إلى مكاتب ضباط الجوازات... بعد دقائق طويلة من الانتظار تفرق الزملاء وذهب كل واحد إلى ضابط مختلف...انتهت صديقة من الضابط المجاور لي بعد عشر دقائق من التأكد من هويتها، فاتجهت أنا إليه مباشرة... قدمت له جواز السفر والاستمارتين اللتين ملأتهما في الطائرة... راح الضابط يضغط أزرار الكمبيوتر بعض الوقت قبل أن يطلب مني وضع سبابتي على الجهاز للتأكد من تطابق بصماتي الآن مع بصماتي التي أخذتها السفارة الأمريكية بالقاهرة أثناء المقابلة الشخصية... سألني بعض الأسئلة العادية بالإنجليزية طبعا... في البداية كنت قلقا من تفهم اللهجة الأمريكية لكنني وجدت نفسي أفهمها بسهولة وأجيبه بسهولة أيضا... تشجعت أكثر ووقفت أنتظر سؤاله التالي بشغف!.

عاد يضغط الكثير من الأزرار ويتفحص شاشة الكمبيوتر التي تبدو حالكة السواد من جهتي فلا أرى شيئا مما يراه هو... عاد يتطلع

إلي بنظرة لم أسترح لها كثيرا، ثم أخذ يضغط الأزرار من جديد... يقلب في جواز السفر... يتطلع إلى الفيزا JI- تأشيرة دخول طلبة برامج التبادل إلى الولايات المتحدة... يمررها في جهاز الكشف للتأكد من صحتها... يعود للكمبيوتر من جديد...يسأل سؤالا جديدا... أجيبه في ثقة... يتنهد... يرمقني بنظرة شك... يضغط أزرار لوحة الكمبيوتر... بعد حوالي عشر دقائق أخرى نهض واقفا على غير العادة... المفروض أن يختم جواز السفر ويسمح لي بالمرور لي من صالة الخروج كما فعل مع الزملاء السابقين... ما الأمر؟... هل صرت «مشتبها فيه» بهذه السهولة؟... يا للكارثة!.

وبمنتهى البرود وجدته يتقدمني قائلا: Come with me!

إلى أين ؟... بصراحة بدا الأمر مثيرا للغاية... إنهم يشتبهون في... لم أشعر بالذعر كما هو مفترض، بل على العكس كنت في غاية الفضول لأدرك ما هو التالي... سألت نفسي ما هي أسوأ الاحتمالات... إلقاء القبض عليّ؟... لابالطبع لا أظن شخصي إرهابيا خطيرا إلى هذا الحد...ا لعودة إلى القاهرة؟... راقت لي الفكرة كثيرا... العودة للوطن بدلا من أربعة أشهر من الغربة...الأمر الذي يجعلني مطمئنا أن كل أوراقي وإجراءات السفر أشرفت عليها إدارة الجامعة يتعاون مباشر مع السفارة الأمريكية... لا مجال لآي خطأ في أوراقي إلا إذا كنت إرهابيا ذكيا جدا...

تشجعت وسألت الضابط عما إذا كانت هناك مشكلة...أجابني دون أن ينظر لي أن المسألة روتينية لا أكثر وأشار إلى زميلة لي قائلا: انظر... ها هي صديقتك تفعل نفس الشيء... لا تقلق!.

دخل غرفة صغيرة غاب فيها لحظات قبل أن يعطيني ملفا أحمر اللون يحوي جواز السفر والاستمارتين ويطلب مني الدخول من باب عن يمينه، ثم تركني وعاد إلى مكتبه... توقفت لحظة عاجزا عن اتخاذ قرار ما ثم قررت الاستسلام والدخول من الباب...

كان أمامي ممر طويل يقع إلى جوار صالة الوصول مباشرة-حيث خرج معظم الزملاء سالمين وكنت أراهم يبتسمون ويحكون لبعضهم عن أسئلة الضباط... سلكت الممر إلى نهايته لأجد في انتظاري مكتبا آخر يضم ضابطين جديدين من ضباط الجوازات... هل حان الوقت الآن لأقلق قليلا؟.

في مقاعد الانتظار أمام مكتب الضابطين جلست... أشار لي أحدهما أن اتقدم فتقدمت، فأخذ مني ملفي أحمر اللون - بما يوحي ببعض بالخطورة-ودعاني للجلوس مرة أخرى... فجلست!.

وطال الانتظار... كانت هنالك زميلتان ممن قدمن معي وكان هناك رجل آخر يبدو أجنبيا... انهمك أحد الضابطين مكالمة هاتفية طويلة، بينما أخذ الضابط الآخر يتفحص الملفات الموجودة على مكتبه مستخدما جهاز الكمبيوتر... ثم نادى على الزميلتين الواحدة تلو الأخرى وسألهما بعض الأسئلة قبل أن يختم لهما جواز السفر ويسمح لهما بالعبور إلى صالة الوصول... إشمعنى أنا يعني؟.

انتظرت من جديد... شرد ذهني في ذكريات الساعات الأخيرة في مصر مع الأصدقاء، ولم أنتبه إلا مع صوت ضابط الجوازات يشير تجاهي بعصبية... الواضح أنه كان نادى اسمي أكثر من مرة ولم أنتبه

له لأنه نطق اسمي بالطريقة الأمريكية «ألا» وليس «علاء» طبعا... تشجعت وتقدمت إليه...

بشك سألني عن اسمي فأخبرته به... ببرود قال إنه نادى عليّ ثلاث مرات فرددت ببرود مماثل قائلا إنني لم أسمعه...وجدته يمسك قلما وورقة ويسألني عن محل إقامتي... أجبته بالقاهرة، فكتبها في ورقة بيضاء أمامه، وعاد يسأل من جديد سؤالا لم أفهمه، فسألني عما سأفعله في الولايات...الدراسة طبعا!.

سأل سؤالا ثالثا فلم أفهم ما يريده بالضبط، وطلبت منه تكراره... رفع جواز سفري إليّ وسألني بحدة: هل هذه هي أوراقك؟... ألقيت نظرة على جواز السفر لأتأكد أنه أنا وأخبرته بالإيجاب... أليست هذه هي صورتي؟.

عاد يمسك بالورقة والقلم وسألني من جديد عن محل إقامتي... هنا كنت قد توترت فعلا، وتيقنت أن الرجل سخيف فعلا... أخبرته بمنتهى الوضوح أن أهلي يعيشون في مدينة اسمها «دكرنس»... أنا أدرس في القاهرة... سأقيم خلال الأشهر القادمة في نيويورك...هنا بدأ عليه بعض الرضا وطلب مني الجلوس والانتظار مرة أخرى!.

انتظرت من جديد... أخذ الرجل يضغط أزرار الكمبيوتر من جديد... يقلب في أوراقي... يتحدث إلى الضابط المجاور له الذي انتهى على التو من مكالمته الهاتفية الطويلة... مر الوقت ببطء قبل أن ينادي الضابط عليّ مرة أخرى... ختم لي جواز السفر بطريقة مستفزة وكأنه قضى الدقائق الماضية محاولا أن يجد وسيلة ما لاكتشاف تزوير ما في أوراقي وعندما فشل لم يجد بُداً من ختمها...

ثم بكل وقاحة ألقى جواز السفر تجاهي، وهو يتمنى لي حظا سعيدا في الولايات... ولم أملك سوى أن أشكره شكرا جزيلا!.

لم أشعر بالإهانة بل بالإثارة... فيما بعد عرفت أنه مجرد إجراء أمني عشوائي تقوم به السلطات الأمريكية في المطار... لا بأس، خرجت إلى صالة الوصول باحثا عن أي زميل من زملائي الاثني عشر الذين جاءوا معي من القاهرة، فلم أجد أحدا... بحثت عن حقيبتي فلم أجدها... سألت واحدة من موظفي المطار عن حقائب شركة مصر للطيران فأشارت لي إلى اليمين... اتجهت إلى اليمين فلم أجد شيئا... عدت أبحث هنا وهناك حتى وجدت واحدة من الحقيبتين جوار المكان المخصص لحقائب شركة طيران الكاريبي... أين ذهبت الحقيبة الثانية؟.

بعد خمس دقائق أخرى من البحث لمحت الحقيبة الثانية وسط كومة حقائب يقف جوارها ضابط أمن يبحث عن أصحابها...اتجهت لأخذها فسألني عن سبب تأخيري في استلام الحقائب...ببساطة أشرت إلى مكتب ضابطي الجوازات وأجبت بإيجاز: كنت هناك!.

استلمت الحقيبتين... جررتهما أمامي متجاهلا عربات حمل الحقائب- الواحدة تأجرها بثلاث دولارات- واتجهت بسرعة خارجا إلى أخرى باحثا عن زملائي... كان المطار مزدحما وصوت الإذاعة الداخلية يعلو معلنا عن وصول طائرة جديدة إلى المطار...وفقا للتعليمات كنا سننتظر بعضنا البعض للانتهاء من الإجراءات الجمركية وسنستقل قطار المطار إلى مخرج 4... المشكلة أن مخرج 4 يقع الآن أمامي مباشرة دون أن استقل القطار... ماذا يحدث بالضبط؟... هل ضللت طريقي في أكبر مطارات العالم؟.

اتجهت إلى أقرب باب باحثا عن أي زميل... فوجئت بشاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره يتجه نحوي ويسألني عن وجهتي... أخبرته بارتباك أنني أبحث عن القطار لأستقله إلى مخرج 4...أكد لي أن هذا الباب أمامي هو مخرج 4...بعد ثوان من الحديث معي فوجئت به يسألني عن جنسيتي، فقلت له إنني مصري... هنا جاءت المفاجأة... تحول إلى العربية وسألني: «شو بتحكي عربي؟»

إذن هو عربي... يا للمصادفة... وجدت نفسي أشعر بالطمأنينة، وحكيت له أنني ضللت طريقي عن زملائي... هنا أخبرني أنه باستطاعته أن يصطحبني إلى أي مكان وعاد يسألني عن وجهتي... أكدت له أنني لابد أن أجد زملائي لأننا سنتحرك معا لنقابل وفد الجامعة الذي أتى لاستقبالنا في المطار... أصر الفتى أنني قد تهت و أنه سيأخذني بالتاكسي إلى أي مكان... هنا بدا الأمر واضحا... هو سائق تاكسي يريد أن يجد أي زبون والسلام...بدا الفتى ملحا يسألني بإصرار عن وجهتي، حتى أخرجت له عنوان الجامعة فبدا عليه الإحباط حينما اكتشف أنها مدينة أخرى تبعد عن المدينة نيويورك بنحو ساعة ونصف... وتركني الفتى دون أن يجيب عن سؤالي عن جنسيته بعد أن لا حظت لهجته الشامية... ها هو ذا أول عربي أقابله هنا يكشف عن وجهه بصراحة...

عدت للمطار من جديد... أتنقل يمينا ويسارا بحقيبتي باحثا عن أي وجه أعرفه... أتخيل السيناريو القادم إذا لم أجدهم...هل سينتظروني طويلا أم أن وفد الجامعة سيأخذهم وينطلقون هم إلى «نيويولتز»؟... لم أقلق كثيرا لأن لدي العنوان ووصف كامل لوسائل

الانتقال من المطار وحتى الوصول إلى نيوبوليز لكن الأمر بدا مفزعا للغاية أن أضل الطريق عن رفاقي هكذا في أول ساعاتي في الولايات المتحدة... صحيح أنني أحمل رقم هاتف مندوب جامعة نيوبوليز الذي سيأتي لاستقبالنا في المطار، لكن كيف سأجده وسط كل هذا الزحام... يا للمأزق!.

وللمرة الأولى شعرت بالوحدة... وحيدا في مطار جون كيندي تائها عن رفاقي في قلب مدينة نيويورك على بعد آلاف الأميال من الوطن...

فجأة لمحت أحد الزملاء يشير لي من بعيد وسط الزحام... لمحته من هنا فاطمأننت من جديد... لم أضل طريقي بعد!.

تجمعنا سويا أمام بوابة المطار... قابلنا وفد الجامعة الذي أتى لاستقبال الطلبة الأجانب قبل أن يناول كل منا بطاقة تحمل رقم غرفته واسم المبنى الذي يسكن فيه... ثم غادرنا المطار...

استقبلتنا المدينة برياح شديدة البرودة... كان الطيار قد أخبرنا أن درجة الحرارة لدى وصولنا تسعة درجات مئوية - وهو شيء جيد جدا فعلا في منتصف يناير... رحت أتأمل الطرقات والمباني المتناثرة من حولنا بحثا عن أي شيء يدل على أننا حقا في نيويورك فلم أجد... صحيح أن السيارات من حولنا أضخم كثيرا وأكثر فخامة مما اعتدنا رؤيته في مصر... صحيح أنها تحمل لوحات تحمل اسم الولايات - يسمونها ولاية الإمبراطورية أو إمبيرستيت - مصحوبا بحروف أبجدية وأرقام أخرى... إلا أننا لم نستطيع أن نجد فارقا جوهريا يدل على أننا في نيويورك حقا...

استقللنا الحافلة وتحركت بنا... الطرقات تبدو مألوفة... الطريق الذي سلكناه يشبه كثيرا طريق صلاح سالم فجرا عندما يكون خاليا... الكوبري الذي صعدناه يشبه لحد كبير محور 26 يوليو... المثير أننا قابلنا لافتة في الطريق حملت اسم «الاتحاد» باللغة العربية إلى جوار لغات أخرى... ثم رأينا مسجدا صغيرا على يسارنا... أين نحن بالضبط؟... فيما بعد عرفت أن هذه كانت «كويتر»... أحد أحياء نيويورك سيتي الخمسة، وكلما سرت فيه كنت أتذكر القاهرة... الحي يفكرك كثيرا بمصر الجديدة أو مدينة نصر!.

لم يطل الأمر كثيرا قبل أن أستسلم للنوم... كنت مرهقا فعلا... اثنا عشر ساعة جالسا في مقعدي في الطائرة... إجراءات المطار الأمنية المرهقة... الإضاءة الخافتة والزحام... صوت مذيع الراديو يذيع الأخبار بالإنجليزية... كلها ظروف تمهد لك الطريق لسلطان النوم...

نمت بينما الحافلة تغادر مدينة نيويورك متجهة إلى الشمال... إلى نيوبولتز!.

sharif mahmoud

sharif muhammad

sharif mahmoud

sharif mahmoud

يقدم هذا الكتاب للمكتبة العربية -لأول مرة- نماذج مهمة من الكتابات العربية الخاصة بالرحلة إلى أمريكا والتي تغطي الفترة الواقعة بين 1996 مروراً بأحداث 11 سبتمبر 2001 وحتى عام 2009 .

كما يوضِّح بعض السمات المميزة لكتابات الرحالة العرب الذين زاروا أمريكا خلال هذه الفترة.

مع هذا القدر الكبير من كتابات الرحالة العرب عن أمريكا هل نستطيع أن نتكلم عن وجود نمط من الكتابة العربية يمكن أن نسميه علم الاستغراب العربي؟ يعني كتابة منظمة تتسم بالتنميط الثقافي للغرب في مقابل علم الاستشراق الغربي؟





